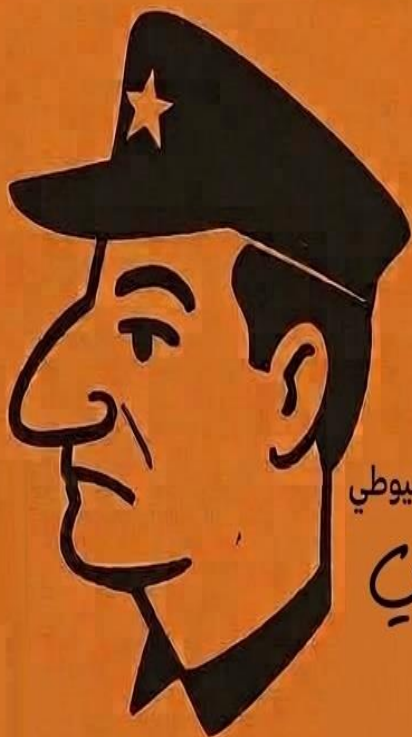


الفاشوش

في حكم اللي ميعرفوش



مش المماتي ولا السيوطي

محمد صبحي

من البابا.. إلى بابا
عقيدة الجهل الواثق والعجز المتبادل

الفاشوش - في حكم اللي ميعرفوش

تأليف: محمد صبحي محمد - المحامي

الطبعة الأولى - ٢٠٢٦

هذا المصنف الأدبي، بما يتضمنه من نص وشخصيات وأحداث وحبكة وتعبيرات وصياغات وعناصر إبداعية، محمي بموجب أحكام قانون حماية حقوق الملكية الفكرية المصري رقم ٨٢ لسنة ٢٠٠٢ وتعديلاته، وبموجب القوانين والاتفاقيات ذات الصلة.

لا يجوز، دون الحصول على إذن كتابي مسبق من المؤلف أو من صاحب الحق، إعادة طبع، أو نسخ، أو نشر، أو إعادة نشر، أو توزيع، أو إتاحة هذا المصنف، كلياً أو جزئياً، بأي وسيلة كانت، ورقية، أو إلكترونية، أو صوتية، أو رقمية، كما لا يجوز ترجمته أو تحويله أو إعداد مصنف مشتق منه أو استغلاله بأي صورة تستلزم ترخيصاً بموجب القانون.

ولا يخل ما سبق بأي من الاستخدامات والاستثناءات التي أجازها القانون، بما في ذلك الاقتباس، أو التحليل، أو التلخيص، أو النقد، أو المناقشة، أو الإعلام، وذلك في الحدود والشروط المقررة قانوناً، مع مراعاة نسبة المصنف إلى مؤلفه وذكر المصدر متى كان ذلك واجباً قانوناً.

وأي استخدام للمصنف خارج الحدود التي يجيزها القانون يتطلب الحصول على إذن كتابي مسبق من صاحب الحق.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

محمد صبحي

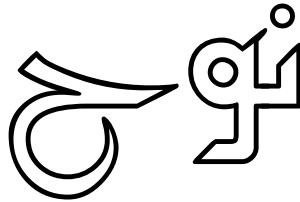
© ٢٠٢٦

الفهرس

٥	إهداء.....
٦	رسالة شكر.....
٧	مقدمة.....
١٠	الفصل الأول: يوم في كوكب البابا.....
٢٣	الفصل الثاني: المورجـيـحة.....
٣٥	الفصل الثالث طبيب الفلاسفة.....
٥٢	الفصل الرابع: اقتصاد الـ ولا حاجة.....
٦٦	الفصل الخامس: فلوس زي الرز.....
٩٥	الفصل السادس: يعيش يعيش يعيش.....
١١٩	الفصل السابع: سينا وسونيا.....
١٥٥	الفصل الثامن: ملكة الصحراء.....
٢٠٧	الفصل التاسع: الثورة كخ.....
٢٧٧	الفصل العاشر: أحلام.....
٣٢٥	الفصل الحادي عشر: القصر والقبر.....
٣٨٠	الفصل الثاني عشر: بابا.....

إهداء

إليك وحدك



رسالة شكر

إلى من أبلغنا يوماً بأننا "غير مؤهلين للديمقراطية" ..

شكراً لأنكم أغلقتُم كل أبواب التعلم والتجربة،
وتركثُمونا وحدنا نتخبط في تركة "المرحلة"،

متجاهلين أن الشعوب لا تتعلم السباحة على جفاف،
وأن من يقطع الأطراف لا يملك أن يعيرنا عكازاً.

مقدمة

صغيراً كلما رأيت حاكماً مستبدّاً أو ظالماً، أسمع من يردد عبارة موروثة: "ده حكم قراقوش".. وسألتُ كثيراً عن هوية "قراقوش"، فلم أجد إجابة شافية، كأن الرجل اختفى خلف لعنته.

حتى طالعت يوماً كتاب "الفاشوش في حكم قراقوش" للأسعد المماتي؛ حيث نسج قصصاً خيالية مبالغ فيها لتشويه غريمه السياسي العظيم "بهاء الدين قراقوش".

ونجحت خطة المماتي؛ فلم يشوّه قراقوش فحسب، بل محي تاريخه الحقيقي كله، ولم يبقَ منه سوى خرافات "الفاشوش".

ورغم أن كبار العلماء، كالإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، حاولوا تبرئته في كتابه "الروض الأنيق في فضل قراقوش"، إلا أن شيئاً لم يستطع مواجهة فاشوش المماتي وسطوته.

من هنا، تعلمتُ أن الكتابة ليست مجرد علاج للماضي، بل هي درعٌ يحمينا من أن نُشوّه في كتب التاريخ.

ولأنني لست مؤرخاً بالمعايير التقليدية، ولا أدعي الأدب بالمعايير النخبوية، فقد أردتُ نقل تجربة جبلي، وحفظ جزء من ذاكرتنا بالطريقة الوحيدة المتاحة.

لكنني لم أنتهج أسلوب المبالغة الذي لجأ إليه المماتي؛ فواقعا اليوم أسوأ وأكثر عبثية بكثير من أي مبالغة تخيلية.

ومن هذا المنطلق، تعمدتُ ألا أتأنق كأديب، وألا أدرس حكماً أو مواعظ بين السطور؛ بل تركت التصريحات والواقع الأسود يتحدثان عارياً على السنة أبطال "الفاشوش في حكم اللي ميعرفوش".

وفي هذا العالم، لا تموت الأنظمة الاستبدادية بموت طغاتها، بل تُورث آلياتها لمن يديرونها بذات العقلية وبأقنعة جديدة.

هذا هو القانون الخفي الذي يحكم "دار الأمل" في هذه الرواية؛ مكانٌ وُجد ليرعى البراءة، فتحول إلى مسلخ خلفي للوعي، ومعمل لتفريخ الخوف والطاعة العمياء.

هنا، لا يعد السؤال: "من هو البابا؟"، بل يصبح: "لماذا نحتاج دائماً إلى بابا؟"

تتناول هذه الرواية، بصيغة ساخرة وموجعة، كيف تتحول المؤسسات التي أنشئت لخدمة المستضعفين إلى أدوات لسحقهم، وكيف يتقن الحاكم المزيف (عبدون) فن بيع الأوهام والمستقبل، بينما يكتفي النخبويون (مثل سعيد) بالهروب أو ترديد عبارة "مفيش فايده"، وتدفع الجماهير البسيطة (الأطفال) ثمن هذا العبث دماً وأعماراً.

إنها حكاية عن الدائرة المفرغة؛ حيث يرحل "عبدون" مخلفاً وراءه خراباً ومقابر، ليدخل "بابا إبراهيم" ويبدأ الحكاية من جديد. حكاية لا تخص داراً وهمية في الصحراء، بل تخص كل مكان مُنع فيه الحلم، وأُغلق فيه باب الحرية.

وأخيراً..

إن رأيتَ ظلك بين سطور هذه الرواية، أو سمعتَ صدى تصريحٍ أطلقته يوماً على لسان أحد أبطالنا..

فتأكد تماماً أنك المقصود

الفصل الأول:

يوم في كوكب البابا

كانت دار الأمل ورعاية البراءة تعيش في عالمها الخاص، عالمٌ يقف عند اللحظة التي قرر فيها البابا أن أي شيء خارج سور هذه الدار كلام فارغ، لكنه يناقض ذلك حين يقول للجميع بحذر: —"بره كمان خطر وفتنة!".

في الممر الرئيسي، كان الحائط يتزين بساعة نحاسية كبيرة، تقف عقاربها بثبات عند الساعة الرابعة والربع. لا أحد يعرف أهى الرابعة وربع صباحاً أم مساءً، ولا في أي عام توقفت تلك الساعة عن العمل! لكن الجميع يضبطون حركة يومهم على هذه الساعة الميتة وعلى هذا الشلل الخالد.

وفي غرفة في الطابق الأرضي، كان البابا في غرفته يجلس على كرسيه الهزاز صاحب الجلد المتشقق من كثرة الاستعمال.

رجل في الثمانين من عمره وربما يزيد، وجهه يفيض طيبة وحنأنا، يرتدي بدلته الكحلّية القديمة التي يعود تفصيلها لثمانينيات القرن الماضي، حريصاً على نظافتها وتنسيقها كأنها بدلة العيد.

حول كرسيه احتشد الأطفال، يوزع عليهم قطع حلوى رخيصة بلا غلاف، يربط على رأس هذا ويداعب هذا، وهو يمسح زجاج ساعته القديمة، ثم يقول بصوته الدافئ:

— "كل حاجة مضبوطة بالملي يا أولاد... أنا مطمئن الدار أمان، وأنتم أولادي السعداء في بيتنا الجميل، أما اللي عايشين بره سور الدار ده مش سعداء ولا عمرهم عاشوا في أمان ده لأنهم ما بيفهموش حاجة... وبكرة تكبروا وتفهموا."

وخارج المبنى، في الحديقة الترابية، كانت سيارة البابا القديمة تحت شجرة كافور عجوز.

إطاراتها الغاطسة في التراب تعلن منذ سنوات أنها لن تتحرك أبداً، لكن بالنسبة لسعيد... كانت هذه السيارة هي مقره الخاص.

كان سعيد يسند كوعه على شباك السيارة الخالي من الزجاج، يراقب المرايح الحديدية المكسورة وهي تصدر صغيراً كلما حركها الهواء.

نظر سعيد نحو طفل صغير يحاول إصلاح سلك المورجيجة بقطعة قماش، وقال بصوت عالٍ وابتسامة ساخرة:

— اربط يا بني اربط... البابا دائماً يقول لنا إن القماش بيحل محل الصلب، قطعة القماش دي أحياناً أقوى من الحديد! ببسميها البابا عقيدة الخيط والفتلة مش فاهم يقصد إيه لكنه أكيد هو صح...

وعلى زاوية أخرى من الجنيئة، كان بكر يقف بجسده الطويل ونحافته البارزة، بلامحه الوسيمة التي تشف عن طفولة متأخرة وعقل يتردد في التساؤل - عقل يفكر ومنطق يتشكل.

كان بكر يراقب أخته في الدار فاتن الجميلة بنظرات محملة برومانسية نابضة، وهي تمر بين العنابر.

فاتن، التي اكتملت أنوثتها فجأة كأنها وردة نبتت في ليلة واحدة، الجمال الذي يفيض بحنان يجعل كل أطفال الدار يلتفون حولها كأنها أهمهم الصغيرة.

بينما كانت منى الأخت الأصغر البنت الجميلة ذات الملامح الناعمة، كانت ترمق فاتن بنظرات غيرة مراهرة مكتومة؛ ففاتن سبقتها بخطوات في النضج واستحوذت قلوب الجميع دون جهد.

وفي تلك الأثناء، خرج البابا من غرفته يتهدى بكرشه الكبير وابتسامته الواثقة التي لا تفارقه نحو الباب المؤدي للحديقة.

نادى على بكر بصوته الدافئ ليساعده في نقل بعض الصناديق والمؤن الخفيفة إلى عنبر البنات :-

— "تعال يا عم المبتسم... ساعد أبوك، يلا ندخل الحاجة دي لأخواتك البنات".

وكانت تخشى فاتن أن يراها البابا وهي تقف تتأمل بكر وتسترق اللحظات معه، فركضت بسرعة مارةً من بينهما لتقف عند مدخل العنبر وكأنها كانت هناك منذ البداية.

لكن أثناء ركضها الخفيف، ونتيجة لنضجها المفاجئ، انسابت من بين قدميها نقطتان من الدم الداكن على أرضية عتبة عنبر البنات دون أن تنتبه هي أو ينتبه أحد في تلك اللحظة.

كان بكر يجهد نفسه لنقل الصناديق مع البابا، لكن نحافته وضالة جسده جعلتا خطواته تتعثر.

التفت البابا بابتسامته الأبوية، ونادى على عبدون الشاب الأصغر في السن لكنه الأقوى بدنيا ليساعدهما :-

— "تعال يا عبدون يا بني... شيل مع أخوك، ايد لوحدها متسقفش".

تقدم عبدون ببنيانه العريض وشنبه الأخضر وصوته الذي بدأ يخشن، وحمل الصناديق بسهولة متجاوزاً بكر بكبرياء مكتوم.

وعند وصولهم لمدخل عنبر البنات، وقعت عين البابا على نقط
الدم الحمراء البارزة على البلاط!

اتسعت عينا البابا بخضة وحيرة، وأسقط ما في يده متناسياً كل
شيء. ارتفع صوته القلق وهو يتفقد الأرضية ويصيح في البنات
اللاتي تجمعن حوله :

— "إيه ده؟! دم مين ده؟! حد اتخانق هنا؟ حد اتعور منكم يا
بنات؟!"

ساد الصمت بين البنات، وتثقلت العيون في فزع وجهل تام بما
يحدث.

ظل البابا قلقاً يسأل ويفحص الأيدي والأقدام دون أن يجد إجابة
أو جرحاً ظاهراً يدلّه على شيء ليطمئن على بناته، فخرج من
العنبر وهو يضرب كفاً بكف، مسكوناً بذهول وقلق لم يعتده
الأطفال منه.

وفي المساء، حين أظلمت الدار واختبأ الجميع في عنابرهم،
وتسللت منى الأخت الأصغر بخطوات خفيفة نحو غرفة البابا.

كانت الغيرة من فاتن تنهك قلبها الصغير، وترغب بأي طريقة
أن تسحب بساط المحبة من تحت قدمي أختها الكبرى.
طرقت الباب الخفيف، ودخلت وهي تتصنع الخوف والارتباك،
وقالت بصوت متهدج :-

—يا بابا... أنا خائفة أقولك، بس بصراحة... فاتن شكلها عيانة
جداً، وهي اللي بينزل منها الدم ده... وده مش النهاردة بس، ده
بقاله يومين ومش من إيدها يا بابا "وأشارت باستحياء وجهل
وغيرة مراهقة نحو موضع بين فخذيهما.

دارت الاحتمالات في رأس البابا العجوز. تنفس بعمق، ثم قام
ونادى على عبدون القوي، وأمره بصوت صارم :

—"تعال يا عبدون يا ابني نادي أختك فاتن... وبعد ما تدخل
تقف أنت هنا على باب الأوضة، ومتخليش أي مخلوق يدخل ولا
يقرب".

وتوجه عبدون لعنبر البنات ليجد جميع الأطفال ملتفين حول فاتن
التي تتوسطهم تجلس بملابس نوم فاتنة تلاعب الصغار كالوردة
التي تداعب الفرشات.

قال بصوت مرتبك:

— يا فاتن كلمي البابا عايزك.

ودخلت فاتن غرفة البابا ووقف عبدون يحرس الباب، لكن فضول
المراهق وشبهة الأخضر الذي بدأ يثبت على شفته دفعاه للالتفاف.
أمال رأسه ولصق عينه بالنقب الصغير المتآكل في كرتونة
"بسكو مصر" التي تغطي كسراً في زجاج باب غرفة البابا.

من خلف النقب، رأى عبدون البابا يطلب من فاتن الجلوس.
والبابا، بعقليته الأبوية البسيطة والبدائية، أراد التأكد من مصدر
الدم، كان يفحص جسد ابنته الجميلة التي بدا جمالها كملاك
رسمت على لوحة لتجمل جدران قصر في الجنة.

كان البابا يفحص قدمها يعتقد أن بها إصابة وبنقاء أبوي خالص،
وحين أدرك الحقيقة، تهلتت ملامحه وضم فاتن إلى صدره بفرحة
أب وبحنان شديد وهو يطبطب على ظهرها ويقول :

— "مبروك يا فاتن... كبرتي خلاص وبقتي عروسة"! وبدأ البابا
يشرح لها ببساطة أب هو نفسه لا يمتلك الخبرة لينصحها كيف
تنظف جسدها وتتعامل مع هذا الدم الطبيعي، وقال:

كمان كام ساعة العربيات جاية ورايح على المدينة أجيب خزین
الدار الشهري

ومن هنا ورايح كل مره هاعمل حسابك أنتي واخواتك البنات
اللي هايكبروا زيک وهاجيب فوط صحية ومستلزمات النظافة
العناية الشخصية للعرايس.



لكن عبدون... لم يسمع حتى كلمة واحدة من هذا الحوار كان
يشاهد من خلف الباب دون القدرة على سماع الحديث!
كان المشهد لدي عبدون مختلفاً تماماً وشديد التشويه.

عيناه المراهقتان اللتان تتفتحان لأول مرة على الجسد، ركزتا على تفاصيل جسد فاتن؛ ولم يفهم لماذا خلعت فاتن ملابسها ولماذا يرى البابا جسدها ولم يعي أن هذا حضن البابا وفاتن حضن أب،

عبدون رأى البابا يمارس سلطته المباشرة على جسد فاتن!
وفي عقله المشوه حديثاً، امتزجت فكرة "امتلاك السلطة" بـ
"استباحة الجسد والشهوة".

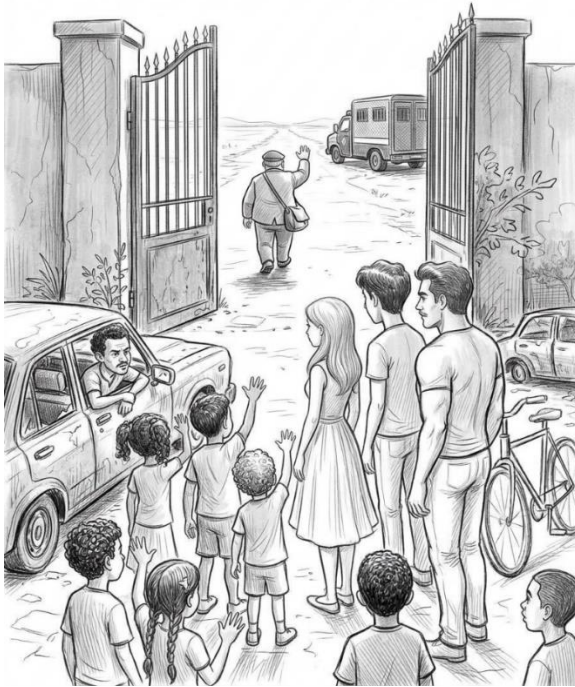
وعند الظهيرة خرج البابا من الغرفة يبتسم، مسح على رأس فاتن التي بدت هادئة ومطمئنة ارتدى كابيه القديم وأمسك بحقيبتيه المتأكلة، متوجهاً نحو البوابة الحديدية التي تجمع عندها الأطفال ليخرج إلى المدينة.

وقف الجميع يودعون، بينما كان عبدون يقف جانباً ينظر لفاتن بعيون جديدة تماماً... عيون تحسست القوة والشهوة في ليلة واحدة،

وعند البوابة الحديدية طبطب البابا على كتف عبدون الصلب
وقال:

— "أنا طالع أجيب خزين الشهر من المدينة... تيقوا عاقلين
كده، محدش يلمس حاجة، ومحدش يعمل حاجة من دماغه...
مفهوم؟"

رد الأطفال بصوت واحد: "مفهوم يا بابا!"



فتح البابا البوابة الثقيلة، وخرج بخطواته البطيئة على الطريق
الصحراوي الممتد.

وقفت فانتن ترقب أثره، وبكر إلى جوارها يتابع الطريق، بينما
أطل سعيد من شباك السيارة القديمة وقال بصوت واطي :-

— "خزين الشهر؟ رايع يصرف التموين أصل البابا عايش في
٢٠٢٥ بعقلية الثمانينات... ربنا يستر ولا يرجع بكرتونة مكرونة
مسوسة ويقول لنا دي تنمية مستدامة والكلام الكبير اللي بقوله
ده!"

أغلقت البوابة، وغرقت الدار في صمت غريب، بينما كانت
الشمس تتوسط السماء، والبابا يبتعد ويختفي تدريجياً في
السراب... دون أن يعلم أحد أن هذه كانت المرة الأخيرة التي
يرون فيها ظله.

الفصل الثاني: المورجـيـحـة

مر يومان، والشمس تشرق وتغرب فوق الدار بذات الشلل الخالد؛
عقارب الساعة النحاسية في الممر الرئيسي لا تزال مسمرة عند
الرابعة وربع، لكن الزمان خارجها كان يمر ثقيلًا كالجبل.
وقف أطفال الدار في الجنية الترابية حول سيارة البابا العجوز.

كان سعيد يسند كوعه على شباكها المخلوع كعادته، يرقب
المراجيح الحديدية المصنوعة من المواسير والجنزير الصديء.

وكان بكر يقف ببذنه النحيف بجوار «فائن»، وجهه مشدود بقلق
العارفين، وعقله الذي بدأ يتشكل يقوده لنطق المسكوت عنه.

تنفس بكر بعمق، وقال بصوت وادع يحاول إخفاء ارتبائه:

— "البابا أتاخر أوي يا ولاد... دي أول مرة تحصل.

الخروجة الشهرية مبتاخذش أكثر من أربع ساعات.

البابا ممكن يكون هيتأخر أكثر... وممكن ميكونش راجع أصلاً!
البابا ممكن يكون.... مات!

ولازم نفكر هنعيش إزاي من غيره".

وقبل أن يرتد صدى كلماته في الجنية، انشق الهواء عن حركة
خاطفة؛ سقطت قبضة «عبدون» القوية بصفعة فائقة المتانة على
فم بكر.

طارت النحافة البارزة في جسد بكر خطوتين للوراء، وسقط
أرضاً يده تدور حول فمه المضروب في ذهول طفولي كامل.
شهقت «فاتن» بصوت عالٍ واهتز جسدها فجأة من الخضة،
واندفعت المراهقة لحماية بكر.

وفي تلك اللحظة بالتحديد، لم يلمح عبدون انكسار القيم ولا دموع
بكر، بل انسابت عيناه المراهقتان — اللتان تفتحتا ليلة البارحة

خلف ثقب كرتونة "بسكو مصر" - لتلتصقا بكل انحناءة في جسد فاتن؛ قرأ في عينيها خيبة أمل ونظرة ناعمة تتجه لنحافة بكر المضروب، فارتفعت الحرارة في رأسه واشتعل الحقد في صدره.

وساد صمت مروع بين الأطفال. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرفع فيها أخ يده على أخيه في عالم البابا.

قطع الصمت طفل صغير، لا تتجاوز ركبته حدود العاب الحديقة، مسك بطرف ثوب عبدون وقال بصوت خائف ومكتوم :

— هو البابا مش راجع بجد؟ طب مين هيغسل الهدوم اللي اتوسخت؟ ومين هيمسح الممر؟ البابا كان بيلف علينا بالليل يغطينا واحد واحد، وكان يقطع البطاطس ويولع النار من غير ما حد فينا يتلسع... هنعمل إيه يا عبدون؟"

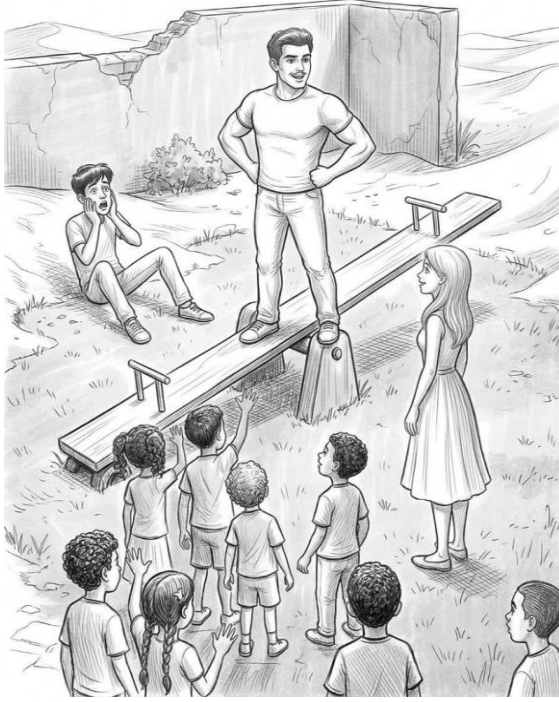
تنهد الأطفال بذات القلق، مستحضرين طيبة البابا العطوفة
والخدمية الشاملة التي طالما اعتبروها حقاً مكتسباً.

وهنا، وفي لقطة أنتشاء فورية بسؤال الطفل الصغير الذي التقطه
عبدون، وكانت فرصة لكسب مشروعية.

وبعد أن كان يخشى عاقبة ضرب أخيه بكر، لمحاه الجميع وهو
يتنفس بثقل، متضخماً بعضلاته وعوده الصلب.

وبخطوات واثقة ومسرحية، تحرك نحو أرجوحة الميزان الخشبية
القابعة في منتصف الجنيّة — لوح خشبي طويل يرتكز على
دعامة متينة، يُلعب عليه بالتبادل.

لم يجلس عبدون على أطرافها كالأطفال، بل قفز فوق نقطة
الارتكاز المركزية تماماً؛ وبحركة عفوية لم يكن مدرباً عليها،
وقف قدماً يميناً والأخرى شمالاً، باعد بين ساقيه باحتراف ليحكم
توازن اللوح الخشبي ويجمّده أفقياً في الهواء. ارتفع بجسده فوق
مستوى رؤوس الجميع، واضعاً يديه في خصره ليطل عليهم من
منصة الميزان.



ثم تنفس بملء رئتيه، ومدّ حرف الباء بنبرة مطاطية واثقة" :
— طبعاً!... البابا كان معلمنى كل حاجة، ومفهمنى الدار دي
بتدار إزاي!"
وفي لحظة خاطفة، حدث التحول الجماعي السحري؛ مسح
الأطفال أثر القلم المحترق على وجه بكر، وتلاشى الخوف من
عضلات عبدون.

اشترى الجميع «الوهم المريح» للنجاة من الرعب الوجودي.
وتنفست فاتن براحة وارتسمت على شفتيها ابتسامة اطمئنان
خفيفة لأن هناك من سيميل عليه البيت،

بينما كانت «منى» تقف عند زاوية العنبر، ترمق بكر المكسور
بنظرة شماتة مراهرة من فوق لتحت، وتدرّك بذكاء تميمي أن
القوة في الدار أنتقلت رسمياً لعبدون.

وفي تلك اللحظات، وبحركة بهلوانية خفيفة، قفز عبود من فوق
المورجحة إلى أخرى ليستعرض أنه قادر على السيطرة على
أي شيء، وأطلق أول قراراته "العظيمة":

—من النهاردة مفيش انتظار ومفيش كسل! الدار دي هتبقى أكبر
مركز تجاري... بكر وشوية العيال اللي معاه هيجيبوا عربيات
الخشب القديمة بتاعة الخضار المركونة ورا المطبخ، ونلف بيها
جوة الدار نبيع ونشتري من بعض! ابن العنبر ده يبيع الخيار لابن
العنبر الثاني، ونعمل سوق ورخاء والفلوس تدور بيننا ونبقى
أغنياء من غير ما نحتاج للشارع برة!"

ارتفع صوت بكر المبحوح من الأرض، وهو يمسح الدم عن شفته" :

— نبيع خضار لمين؟ أنت بتهزر ولا بتتكلم جد؟!!

هو إحنا عندنا خضار أصلاً عشان نبيعه؟! الخضار كان بيعي من برة مع البابا، والتجارة بيننا من غير زرع ولا إنتاج حقيقي مش هتجيب طماطماية واحدة... دي تجارة فنكوش هتجوعنا أكثر!

لازم نلاقي موارد جوة الدار ونتاجر مع الناس اللي برة السور، وقتها بس الدار هتكمل وأخواتنا هيبقى في أمان".

اهتزت ثقة الجميع في عبدون للحظات معدودة، والجميع ينظرون للأخ الأكبر بكر ثم يلتفتون لعبدون في أنتظار كلمات تطمئنهم.

تغيرت تعابير عبدون، واشتعل وجهه؛ لقد استهدفت هيبة "البابا الجديد". قفز من فوق المورجيجة بقسوة، وأشار نحو بكر بنبرة تخوين حازمة: "خائن!!"

— خائن!!

بكر عايز يهد روح ومعنويات الدار! وينشر أخبار كاذبة ويضر بالأمن القومي ويؤثر على الهيئة العامة للسلام الاجتماعي، ده غير أنه بيهدم قيم أسرتنا ودارنا اللي اترينا عليها... ده عايزكم تموتوا من الجوع عشان يثبت إنه صح!"

امتدت يد عبدون القوية وسحبت بكر من سواعده النحيفة، يجره نحو إحدى الغرف في البدروم المهجور.

ارتفعت أصوات الأطفال المذعورة:

— "سجن؟ عبدون هيسجن أخونا الكبير؟! البابا عمره ما عمل كده!"

توقف عبدون عند سلم البدروم المتآكل، ودار بكبرياء الممتهلك
للتسميات الجديدة، قائلاً بنبرة عصرية مغلفة بالتجميل اللفظي

— : سجن إيه؟ لا سمح الله! هو أنا سفاح؟ لا ده أنا عادل
أوي ومؤمن أوي وصادق أوي أنتوا متعرفوش ولا إيه
صحيح

أنا منكم وأنتوا نور عينيا! وده مش سجن، ودي مش زنزانة...

ده «مركز الإصلاح والتأهيل»، وبكر مش سجين... بكر
«نزيل» لحد ما يتصلح فكره ويبطل إحباط فيكم!"

خيم صمت مرعب وثقيل على الجنينة، صمت الخوف من القوة
ومن المصطلحات الجديدة التي تزين البطش.

وفجأة، شق الصمت بصوت تصفيق بطيء؛ كانت «منى» تتقدم
بخطوات خفيفة، وتصيح بنبرة حماسية مصنوعة مدفوعة
بالتشفي في بكر وفاتن وهي تنظر لعبدون بإعجاب :

— "أنت صح يا عبدون!"

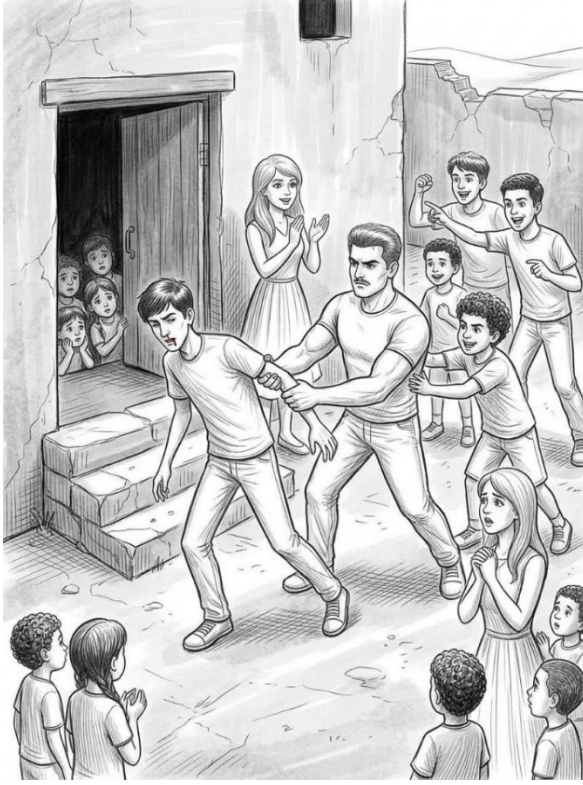
ثم هتفت بصوت عالٍ " :

يعيش البابا..... ويعيش عبدون!

يعيش البابا..... يعيش عبدون!

وهتف الجميع خلفها: —

يعيش عبدون.... يعيش عبدون



الأخوة الأولاد، هتفوا، ثم كبّلوا أخاهم الأكبر بكر وهم يواصلون
الهتاف حتى أوصلوه إلى البدروم، ودُفع بكر نحو محبسه وأُغلق
الباب بالقفل القديم.

كان التقاط الأطفال للهتاف خلف منى توهماً جديداً للأمان،
متناسين بكر القابع خلف الباب المغلق، ومتجهين نحو عربات
الخضار الخشبية الفارغة ليبدأ

أول أيام الفاشوش

الفصل الثالث

طبيب الفلاسفة

كانت غرفة البابا العجوز في الطابق الأرضي تبدو كضريح هجره ساكنه؛ الرطوبة تنخر في جدرانها، والكرسي المتهاك ذو الجلد المتشقق يقبع في المنتصف كعروش الملوك المنسيين.

جلس عبدون على كرسي البابا لأول مرة، يلبس كاب البابا العجوز المخملي الذي يتدلى على عينيه قليلاً.

كان يتنفس بثقل، وبشهوة السلطة التي تذوقها الصباح على منصة الميزان الخشبي تتشابك وكانت في رأسه مع شهوة قديمة ومكبوتة.

فُتح الباب ببطء، وتسللت «فاتن». ملابس تنظيف المبللة بالكامل زادت جمالها بعد أن قضت النهار في غسل الممرات، وشعرها الحريري الابتلال يلصقه برأسها ليبرز ملامح وجهها الهادئة الساحرة.

وقفت عند عتبة غرفة البابا الجديد "عبدون"، أنفاسها متسارعة
وصوتها يرتجف محاولة مساعدة بكر

— "يا عبدون... أنت لو محطتش أكل ومياه وعلاج لبكر في
البدروم هايموت!

وقتها باقي أخواتنا هيزعلوا منك ويكرهوك... حرام عليك بكر
برضوا أخونا الكبير".

عبدون لم يكن يسمع كلمة واحدة مما تقول.

ارتفعت نظراته من أسفل قدميها، تتسلق الساقين والركبتين،
لتستقر عند صدرها تحت القماش المبلول.

كان عبدون سجيناً في شهوته، يتذكر ليلته القديمة وهو يتلصص
من ثقب كرتونة "بسكو مصر" خلف الباب، يتذكر كيف كان البابا
يحتضن فاتن.

مد يده بطمأنينة ثقيلة، وقال بصوت مبجوح وهو يحاول إطالة الحديث قدر الإمكان ليظل يشخص في جسدها":

— طب ورأيك إيه؟ اقعدي... اقعدي يا فاتن ونتكلم".

كان يطلب منها الجلوس ليُعيد إنتاج ذات المشهد الذي لم يبارح مخيلته لحظة حتى في أحلامه؛ كان متعجلاً ليأخذ ذات الحزن، ويمد يده ليفحص جسدها ويرى الدم الذي رآه مع البابا الراحل على الأرض.

لكن فاتن، بدهاء أنثوي وفطرة خائفة، تراجع خطوتين للوراء، وعيناها تتسعان بانتفاضة خائفة، ثم سحبت جسدها وغادرت الغرفة وهي تردم الخوف في صدرها.

وفي نفس اللحظة، وعلى بُعد خطوات من الباب، كانت «منى»
تقف عند ذات الثقب في كرتونة "بسكو مصر".



كانت تتابع المشهد بعيون تلتهم فائن بغيرة سوداء؛ رأت كيف
ينظر عبدون لملايس فائن المبتلة، وكيف يتأمل انحناءاتها.

اشتعل الحقد في صدر منى، وانسحبت بخطوات متغيرة نحو
الممر الفارغ.

وقفت أمام المرأة المكسورة في زاوية العنبر، خلعت ملابسها
الفضفاضة، ونظرت لجسدها أمام انعكاس زجاج المرأة وهي
تهمس بغیظ مكتوم:

— "ما هو حلو أهو! اشمعنى هي؟ طب يمكن عشان هي مبلولة
مية؟"

جرت نحو الزير، وقذفت المياه على جسدها وثيابها حتى ابتلت
بالكامل، لكن الانعكاس لم يرضيها.

وفجأة، ذهب عقلها إلى فكرة بدائية ومظلمة :

أيوه! هو الدم اللي عندها ومش عندي! البابا كان بيحبها عشان
الدم... لو نزل منى نقطتين دم الكل ها يحبني ويسمع كلامي،
وعبدون يعجب بيا أنا!"

ركضت نحو المطبخ، وسحبت سكيناً قصيرة، ووقفت في زاوية
العنبر تنزع ملابسها لتجرح نفسها من الأسفل لينزل الدم.
وقبل أن تغرس السكين في جسدها، دخلت فاتن فجأة.

انقبض قلب فاتن وركضت نحوها، سحبت السكين من يدها بقوة
وصحكت على أسنانها":

— بتعملي إيه يا مجنونة؟! أنت متخلفة؟!"!

منى تصرخ وتبكي بحقد":

— سيبيني! أنت عايزة عبدون يبصلك أنت بس! البابا كان
بياخذك جوة وبقي بيحبك أكثر مننا من ساعة ما حصل موضوع
الدم ده... أنا كمان عايزة الدم ده يبقى عندي!"!



توقفت فائن في مكانها، واستوعبت عمق الجهل الذي يغرق فيه
أطفال الدار.

انخفضت نظرتها برحمة أخت صديقة، وأمسكت يد منى
المرتجفة وقالت بنبرة حنونة: "

— يا عبضية... أنتى فاكرة الدم ده بتعويرة بسكينة؟! ده مش
تعويرة... كل البنات لما تكبر وتنضج بيحصلها كده بخلة ربنا.

متخليش حد يفهمك حاجة غلط عشان يستغلك... أنتى جميلة يا
منى، وأجمل منى كمان! بس أنت عشان شايفانى أنا، مش شايفة
نفسك... أنا بشوف عبدون وهو بيبص عليك أنتى كمان ومعجب
بيكى".

احتضنتها فائن بحب وطيبة دافئة ووضعت منى رأسها على كتف
فاتن، لكن عينا منى المفتوحتن فوق كتف فاتن كانتا تلمعان بحقد
لم ينطفئ؛ غير أنها أخذت في نفس اللحظة ثقة جديدة وشرسة في
جمالها وجسدها.

وفي الصباح التالي، تعمدت منى ارتداء ملابس ضيقة ومغرية.

خرجت من العنبر بخطوات واثقة، ونزلت بين الأطفال والجياع
في الجنيّة، وبدأت تدور على كل أيتام الدار وتحرضهم بنبرة
مظلومية خبيثة":

—الأكل اللي عايز عبدون يدخله لبكر في البدروم إحنا أولى بيه! بكر قاعد مبيعملش حاجة ومبيشتغلش، وإحنا اللي شغالين بدون فائدة! والبابا مش موجود... ليه بكر ياخذ مجهودنا وأكلنا وهو محبوس؟!"!

بدأ الأطفال الصغار، وضغط الجوع يعصر بطونهم، يتردد وراءها بغير فهم":

— صح!... بكر بياكل أكلنا ليبييه؟!"!

وصلت ضوضاء الجنيّة لمسامع عبدون، فخرج، ليتفاجأ بإرهاصات أول عصيان وتجمهر من الأطفال.

صاح أحدهم وهو يشير على عبدون":

— أنت سمعت كلام فاتن وهندي أكلنا ومجهودنا لبكر المحبوس؟!"!

شاط عبدون غضباً وصرح" :

— مين اللي قال العك ده؟!"!

رد الأطفال بصوت واحد" :

— منى!... منى هي اللي قالت كده!"!

التفت عبدون نحوها، ولأول مرة تقع عيناه على منى وهي تقف
بملايس مثيرة لم يراها بها قبل ذلك.

انبهر عبدون بجمالها كأنه يكتشف لأول مرة أن في الدار أنثاً
جميلات غير فائن.

لكنه، ولكي يكسر التجمهر ويستعيد هيئته أمام الأطفال، قرر أن
ينتصر لهيبة قراراته على حساب غريزته، ويجعل من منى كبش
فداء ليثبت أنه لا يُقاد

وكأن شهوة السلطة قد طغت بعقل عبدون علي ما دونها من
غرائز وشهوات اخر.

وقف عبدون وسط الجنينة، ونفخ صدره، وصاح وهو ينظر لشكل
منى بحدة واستعلاء":

—أنا لا بسمع كلام فاتن ولا غير فاتن ومفيش حد يقدر يلف
على وداني بأي هبل وأصدقه!

أنا ربنا خلقتي مختلف... ربنا خلقتي «طبيب الفلاسفة»!

اعرف المرض وأوصف علاجه والبابا بيجيلي دايماً في أحلامي
وجالي امبارح في المنام وقال: حافظ على كل ولادي يعيشوا
كويس لحد ما أرجع... ومقدرش أسيب بكر يموت من الجوع لأن
حسابه عندي أنا!

وبما أن بكر أخذ جزاءه عشان كان عايز يعرضكم للخطر
الخارجي، يبقى لازم أي حد يغلط غيره ياخذ جزاءه برضه!

وأنا راجل عادل أوي.... وصادق أوي صحيح ... وأختكم
منى ارتكبت خطأ كبير ووقعت بين الأخوات وشقت الصف،
ولازم تتعاقب!"!

واللي كسر كوباية لازم يحاسب عليها

ثم أشار بيده بقسوة" :

— أمسكوها... وتنزل البدروم في الأوضة الثانية!"!

ارتفعت صيحات الخوف وقفز اثنان من الأخوة الكبار وكمبوا
يدي منى من الخلف.

خافت منى وبدأت تقاوم وتصرخ، بينما عبدون يراقب جسدها
أثناء المقاومة لا يرى العنف ولا الضعف فقط يرى جمالها.

ابتعد الأطفال المذعورون، ومن بينهم كانت أصغر بنوة في
الدار تقف بعيداً يملأ الرعب عينيها الصغيرتين.

فجأة، رفع عبدون يده وقال للولدين اللذين يقيدان منى :
— "استنوا!... هاتوها على أوضتي الأول، في حاجة مهمة لازم
تتنسق وتعمل قبل البدروم".

سأله أحد الأخوة بغير فهم:

— هاتعمل إيه يا عبدون في الأوضة؟"

رد عبدون بكبرياء السلطة وغرورها":

— أنا عارف أنا بعمل إيه!

ومن هنا ورايح متسمعوش كلام حد غيرى ومش عايز زحمة...
اتنين أو ثلاثة بالكثير يكتفوها ويطلعوا معايا".

سحبوها لغرفة عبدون (غرفة البابا سابقاً). ثبتها الولدان على
الكرسي.

تقدم عبدون بثقل، ومد يده من تحت ملابسها بوقاحة متحسسا
جسدها وكل ذلك تحت غطاء السيطرة.

صرخت منى وهي تتلوى، فسأله الأخوة بذهول :

— أنت بتعمل إيه يا عبدون؟!"!

رد عبدون وهو ينظر للفضاء بجمود" :

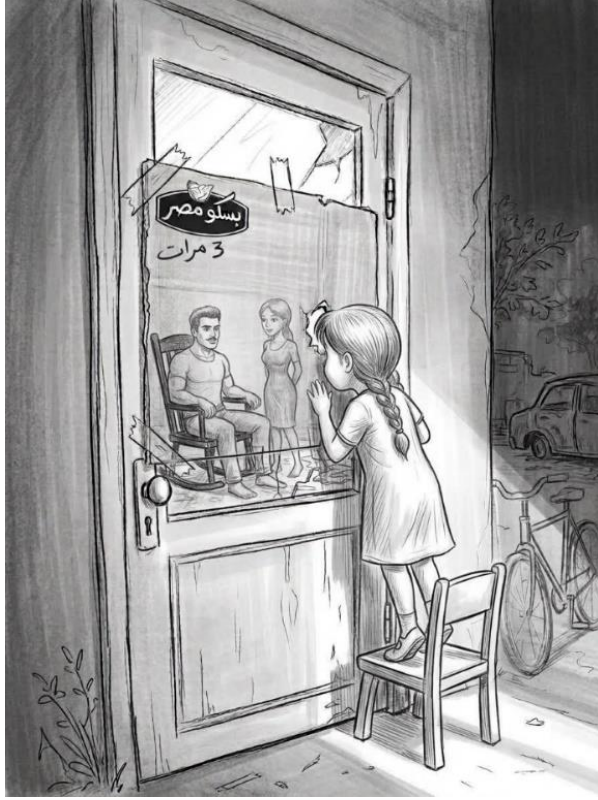
— زي ما البابا كان بيعمل بالضبط!... بتأكد دايماً إن البنات
معندهاش دم هنا!"!

في خيالات عبدون المريضة في تلك اللحظة، لم يكن يرى منى؛
بل كان يتخيل أن من بين يده فاتن،
ينتهك جسدها بحجة الفحص والتفتيش، كان يؤلمها بينما هي تبكي
وتختنق

والجميع يراها ويسمعها عدا عبدون مازال عقله متوقف عند
مشهد فاتن والبابا.

وبعيداً عند باب الغرفة، كانت البنوة الصغيرة قد تسالت صامتة،
استعانت بكرسيها المخصص للأطفال وقفت عند ذات الثقب في
كرتونة "بسكو مصر"...

اختلست النظرات بعيون طفولية واسعة، تراقب ما يحدث بغير
فهم لصغر سنها، لتستقر اللقطة في ذاكرتها إلى الأبد.



سحب عبدون يده وأخذ نفساً عميقاً، ثم أشار للأخوة بنبرة واثقة
وباردة":

— تمام... خدوها على البديروم، ودخلوها الأوضة الثانية".

دُفعت منى، بقرها وثوبها الممزق، نحو محبسها المظلم في
غرفة البدروم الثانية، ليكون للدار الآن سجينان:

بكر..... في سجن الرجال

منى..... في سجن النساء

وعبدون يحكم السطح بصفته طبيب الفلاسفة.

الفصل الرابع: اقتصاد الـ ولا حاجة

في الصباح التالي، لم يعد في الدار سوى الأوهام والدفاتر القديمة.
وبعد أن فرغ "عبدون" من ترسيخ سلطته على الدار وعلى أخوته
من الأيتام

تثبيت أقدامه بوصفه ليس فقط البابا وإنما "طبيب الفلاسفة"، وقرر
أن يخوض معركة الاقتصاد الكبرى؛ فورّع موارد الدار المتبقية
— ما بين أكل شحيح، وعصير، وعلاج، وحتى مقاعد الجنينة
وأحجارها وألعابها —

وجعل كل ركن ملكاً لمجموعة أو لشخص بعينه.

هكذا أصبحت المصطبة ملكاً لفلان، والزأوية القريبة من الشجرة
إقطاعية لعلان.

ودارت العجلة في الدار كأننا في سوق حقيقي: الكل يبيع، والكل
بيشترى، والكل يأجر ويؤجر لغيره!

الواد الصغير بببدل ر غيف عيش بكرسي، وبائع الماء يكتبك صك
وهمي على ورقة مهترئة.

وفضلت الفلوس والديون رايحة جاية بين عيال ما بيعرفوش
بيعملوا إيه؛

الفلوس بتدور في حلقة مفرغة، ومفيش لا حبة قمح بتزرع ولا
شجرة بتطرح، ومفيش حد فيهم فكر لما المخازن تفضي والأكل
يخلص إيه اللي هيحصل.

كام يوم وفجأة... صحي الكل على وجع البطون الفاضية، مفيش
مخلوق عارف يعمل إيه بالورق والفلوس اللي ما تشبعش جعان
ولا تستر عريان دي.

وهنا، تقدم سعيد كعادته مبتسماً، عائداً من سيارة البابا العجوز،
لكن ابتسامته هذه المرة ابتسامة مريرة، وبصوته الذي يحاول أن
يكسر حدة السوداوية قال:

— «يا إخواننا... أنا مش مستغرب الدفاتر دي وشوية الأوراق
اللي مسميها عملة وهم كبير؛ واحنا عشناه، وبعنا الحجر، وعبدنا
الصكوك، وأهو الحل فضيت والثلاجة مفيهاش غير مياه تقضينا
١٠ سنين.

واهو في السوق الوهمي بتاعنا مفيش ولا سلعة ولا مشترٍ ولا
بايع ... النبي، تعمل إيه الفلوس في إيد جعان لو مفيش حاجة
يشتريها؟!

أقولكم أنا عندي حل معتبر:

— جمعوا فلوسكم وصكوكم في غطاء مخدة، أعملوا منها
عرايس ... أه عرايس وخدوها في حضنكم يمكن تدفيكم وأنتوا
نايمين، أو أطحنوها واعملوا منها علف للي هايموت من الجوع

أهو العلف أحسن من مفيش... يا اخونا العملة اللي ما تشتريش
حاجة ملهاش عازة! »

ويدير سعيد وجهه ليتركهم ويدخل لينام..... فجأة يلف وشه
ويرجع بحركة بهلوانية:

ثواني ثواني ثواني!

أنا لسه واخذ بالي من حاجة فيه مثل شعبي ما كنتش فاهمه غير
دلوقتي؛ كان دايماً البابا — ربنا يرجعه ليننا بالسلامة — أما
حد يعمل حاجة ملهاش لازمة يقوله: "بلّه واشرب ميتة"... (ولا
يوم من أيامك يا بابا) ...

تفتكروا المياه بعد ما نعوّم فيها الجنيه هاتشبع أكثر من المياه
بتاعة العشر سنين الثلاثة؟!!

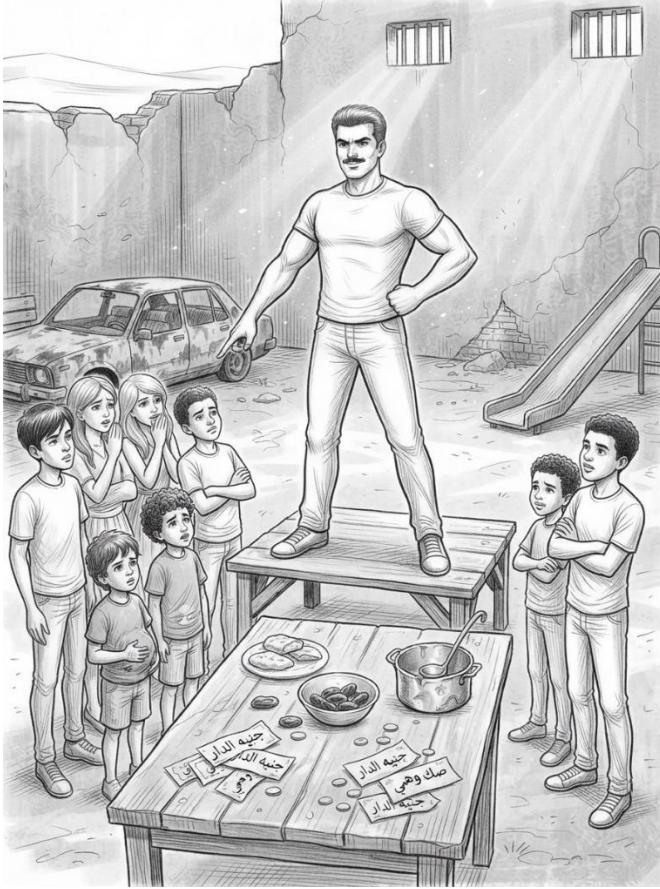
يلا يا ولاد، اللي معاه جنيه بسرعة يبيله ويشرب ميتة!

بعض الصغار مفهموش حاجة من سعيد لكن الباقي ضحك
ضحكة صفراء باهتة، وعاد الصمت وثقل على الأجواء، ووجه
الصغار انظارهم لعبدون، وقالت بنوتة صغيرة مش فاهمة إيه
اللي بيحصل:

— «يا عبدون، نأكل إزاي ومفيش غير شوية أكل صغيرين،
واللي معاه بيبيع بفلوس كتبيبيير أوي؟!»

عبدون بثقته الغير مبررة رد وقال:

— «عارفين حل الغلا ده إيه؟!» ... ولم يرد أحد.



كرر عبدون كلامه: — «عارفين حل الغلا ده إيه؟!» ...

«الحاجة اللي تغلي عليكم متشتروهاش!»

ورغم عدم فهم الصغيرة وباقي الإخوة الأيتام كلام عبدون، إلا أنهم شعروا بحالة من عدم الرضا، وساد صمت يحتضن همهمات الأيتام.

عبدون، عمره ما بيعترف بغلظه؛ يدرك أنه أمام مشكلة، ولكن لا يعترف حتى لنفسه بخطئه، ولديه يقين غير مبرر أنه سيجد حلاً أما عن طريق ذكائه النافذ أو ها يجيله إلهام أو حتى يجيله البابا في المنام واللي ربنا في ظهره مبيعطلش.

عبدون شاف في همهمات وكلام أخواته قلة أدب وتمرد على حكمته.

وقبل ما يكمل كلامه وفي وسط حالة الخوف والجوع، فجأة نوران — إحدى بنات الدار — قالت بصوت عالي اعتراضاً على المهزلة دي، — لكن ملحقتش وقبل ما تقول وقبل ما تتكلم كان كافي شكلها المتعصب اللي بيقول انها هاتعارض، عبدون سكتها وقال بغضب:

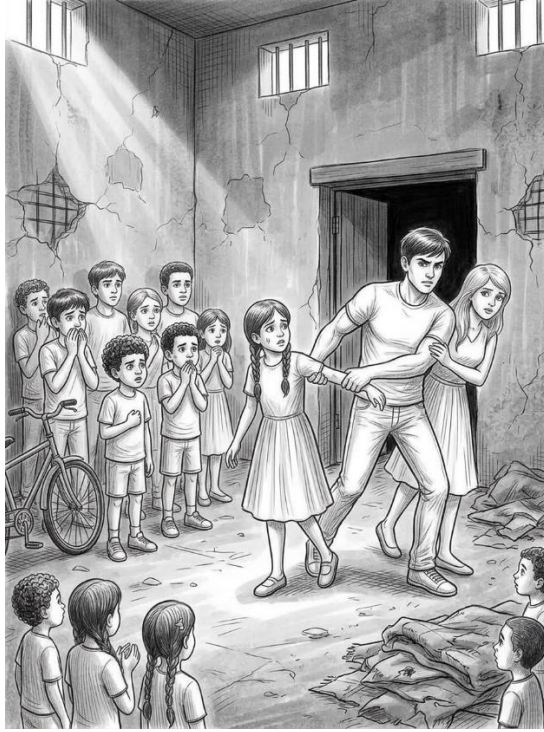
— «على سجن النساء... تنزل فوراً!»

مفیش هنا حد یکسر کلامنا ویضر بالسلام الاجتماعی... أنتوا
مش عارفین یعنی إیه دار؟

اصبروا علیا کام یوم وهاتشوفوا العجب العجاب، وأهم حاجة
متسمعوش کلام حد غیری!»

وکمل کلامه بغضب، وأشار بیده نحو نوران:

— «علی سجن النساء... تنزل حالاً! أصله ما یبقاش واحد مننا
اللی یعترض وهو مش دارس اللی هو بیقوله ولا فاهم حاجة!»



هجم الصبية ومراهقو الدار ينفذوا الأمر. مسكوا نوران وكتفوها
لمحاولة سحبها بالقوة للبدروم مع أختها الكبرى منى حيث سجن
النساء.

وفي زحمة الزعيق والشد والجذب، فستان نوران اتبهدل وكشف
بعض جمالها،

واحد من المراهقين أتباع عبدون وقع نظره على ما كشفته ملابس نوران، وتعرف حينها على فجوره الذي دفعته إليه السلطة البسيطة التي منحها عبدون لهم على نوران وامتدت يده وتحسست جسد نوران.

وشعرت نوران بما كانت تواجهه للمرة الأولى عي عمرها، فاستجمعت قوتها وضربه على وجهه فرد الصفحة في لحظتها اما باقي المراهقين فلم يلاحظوا شيئاً الامر بالنسبة له ضربه وسط – الهيصة - مقاومة وخوفاً من السجن

شد الأيتام بقسوة أكثر ونوران بتصرخ بصوت عالي، لا نعلم أهو غضباً، أم قهراً أم مجرد خوف من السجن،

لكن الشيء الوحيد الأكيد هو ان نوران الان لم تعد مشكلتها مشاكل الدار فقط، وإنما جسدها الذي انتهك أمام الجميع دون أن يتعاطف أحد.

وأثناء نزولهم لعمة البدر، كان بكر المعتقل الأول في الدار يلاحظ بعين مفتوحة يراقب ما يحدث من النظارة -الفتحة الصغيرة في باب الحجز- شاهد إخوته وهما يسحبون نوران بالشكل ده.

صرخ بكر من وراء الحديد بأعلى صوته وبكل غضبه: «

— يا عيال... يا أغبياء...

بكرة كلكم تيجوا جنبى هنا!.....بكرة كلكم تيجوا جنبى هنا!»!



لم يتلفت أحد لكلام بكر كأنه شبح يتكلم، وأكملوا طريقهم للظلمة.
وفي هذه اللحظة بالتحديد، قلب بكر كان يشتعل غيظاً ومهانة من
خيانة إخوته، الشرارة في عينه كانت تعلن لحظة ميلاد كره أعمي
لأخواته ولعبدون ولكل اللي ساعد عبدون.

أما في الناحية الأخرى حيث سجن النساء، فكانت منى التي
أصبحت مهووسة بجمال جسمها واقفة تشوف اللي بيحصل من
النظارة هي كمان.

وبمجرد أن شاهدت السجينة الجديدة، وجهها اترسم بابتسامة
خبثة؛

فرحت مني بوجود "أنثى جديدة" تونس وحشة السجن، وفرصة
لتشبع رغبتها المجنونة في مقارنة جمال جسدها بجسد نوران
المنهك.

خرج السجنانون من البدروم يسرق أحدهم آخر نظرة على جسد
السجينتين.

واستقرت نوران في سجن النساء تبكي في حالة انهيار.
ومنى كانت تخفي فرحتها وراء طبطبة وتضامن مصطنع.

وبكر يعود ليجلس ظهره للباب، يسد أذنيه ويكي ويصرخ
بكلمات غير مفهومة، حتى سكت وبكي وهو يئن ويقول:

— «من سيكون ضحية عبدون القادمة؟ من سيكون ضحية
عبدون القادمة؟!»

الفصل الخامس:

فلوس زي الرز

لم يعد تناقص الطعام أو الغلاء مجرد أرقام مهملة على ورقة بيضاء، ولا سعراً زائفاً يهتف به عبدون من فوق منصته الخشبية؛ لكن تحول إلى معول ثقيل يهدم ما تبقى من جدران الصمت المتهالكة داخل "دار الأمل".

في الساحة الخالية، وقف أيتام الدار صبية وفتيات خاوي البطون، لا لغة تشغلهم سوى قرقرة الأمعاء وصوت الهواء الخشن بين الجدران المتصدعة.

الأوراق المزيفة التي ألقاها عبدون كصكوك للرخاء تلاشت قيمتها في مواجهة القحط الفعلي؛ الأموال والصكوك رماداً ورقياً.

انفرط عقد الطقوس التي أرادها عبدون محكمة، وبدأت أعين
الأطفال تلمع بنظرات التمرد والتشكيك، متسائلين في الخفاء ماذا
ستكون خطة أوي حتى حجج عبدون حين يواجهون الفراغ
الحقيقي.

في قاع البدروم، حيث تنبعث رائحة العزل، دخلت نوران الحجز
متهاكة تماماً من إرهاب المقاومة والعنف الذي قابلت به عند
اقتيادها.

هناك في العتمة، رأت منى حالتها. وفي تلك اللحظة، تبخرت
تماماً أي هواجس قديمة للغيرة أو التنافس على الجسد؛

جذبت منى نوران في حضنها بفيض من مشاعر أخت حقيقية،
ودموعها تسيل على وجهها متأثراً بحال رفيقتها.

وجدت نوران في هذا الحزن الدافئ ملاذاً، فألقت بثقل تعبها
ودخلت في نوم عميق بين أحضان أختها الأكبر.

لكن النوم لم يستمر طويلاً؛ وما إن غفلت أعين نوران حتى
عأودت هواجس منى القديمة تحريك وسواسها.

امتدت يد منى بفضول قلق غريب لتلامس ساق نوران النائمة.

أنتفضت نوران فزعاً واستيقظت في التو؛ لم تكن تدري تحديداً
ماذا فعلت منى لكنها تأمنها ولا تتوقع منها خطر،

ولكن مجرد اللمس المباغت في العتمة بعث في صدرها رعباً
خفياً ربما ما فعله أخيها عند تكييلها قد سجلته ذاكرة الصغير
كأول انتهاك لا تستطيع نسيانه أو حتى وصفه.

طيب "مين يقول السر الأول؟" منى بعينين تلمعان

— "قولي أنتي الأول"، ردت نوران بابتسامة خافتة عييب
بأختي (بتعطيش التاء) أنتي الكبيرة يلا قولي.

منى بصوت منخفض يمزج براءة السن بصدمات الاكتشاف:
— "فاكرة الدم اللي كان بيقطر من فائن يوم ما دخلت العنبر
فوق؟

نوران:

— طبعا فاكرة يالهوي يابت أنتي ناسيه ازاى خوفنا يومها وقولنا
عيانة لكن يومها فهمنا بعد كدة، إنها كبرت وبقت عروسة".

منى بفرحة مشوبة بالدهوة:

— "خدي بقي المفاجأة دي... أنا كمان بقيت عروسة!".



نوران بغبطة بريئة مع شهقة وفرح:

— "مبرووووك عقبالي يارب بقي..."

ابتسمت منى:

— " يابت احنا قريبين لبعض في السن... وأنتي كمان بقيتِ

حلوة، وهتبقى عروسة قريب أوي

وفردت مني صدرها ورفعت رأسها عاليا بسخرية:

— أنا خلاص بقيت عروسة وبفهم في الحاجات دي".

تعلقت عينا منى بنوران بشغف:

— "يلا... دورك، قوليلي السر اللي كنتي عايزة تحكيه".

نوران:

— لا خلاص ياستي احنا ماصدقنا نضحك مش عايزة أعكنن

علينا بعدين

منى:

— إيه النصب ده يابت... والله ما أعديها احكي بالذوق أنتي

مش عارفة أنتي بتتكلمي مع ولا إيه أنا عروسة البدروم.

ضحك السجينين بصوت مرتفع أزعج سكون البدروم حتى قاطع
ضحكاتهما دموع نوران التي تسالت من عينيها بغير سيطرة
عليها

خففت نوران عينيها بكسرة:

— "بس... بس السر بتاعي مش حلو زي سرك يا منى...".

ضمّتها منى بحنان حقيقي: "قولي متخافيش... اعتبريني أنا
أختك".

بللت نوران ريقها، وبصوت يملؤه الارتباك والجهل البريء بما
حدث، بدأت تروي:

— "وهما بيكتفوني... الواد زيدان... مد إيدته على ظهري بطريقة
غريبة ومخيفة... حسيت بحاجة بشعة خلّتني أضربه بالقلم بكل
ما في... هما فكروا إني ضربته عشان رافضة الدخول للبدروم
بس... بس مش ده السبب الحقيقي...".

صمتت نوران وهي تحاول بصعوبة بالغة أن تصف ذلك
الإحساس الغريب والمفزع.

اقتربت منى ببطء وبشكل لا إرادي نحو نوران، كأنما تجذبها
مغناطيسية خفية؛ اقترب وجه منى من وجه نوران في مسافة
قريبة وساكنة تتماس فيها الأنفاس ويختلط الخوف بالفضول
والارتباك الداخلي. أفاقت منى فجأة على رعب اللحظة،
فتراجعت بخفة وقالت بصوت مرتعش:

— "مش... مش مهم أشوف... المهم... حسيتي بايه؟".

أجابت نوران بصوت يقطعه التردد:

— "مش عارفة بس حسيت جسمي كان يترعش... مش عارفه
أشرح بالظبط... بس أقرب إحساس للي حسيته كان... الخوف
الرهيب".

التفتت منى بسرعة لتجد أطراف نوران، ترتعش في هذه اللحظة
لا نعلم هل هو من أثر اقتراب وجوههم واختلاط انفاسهم أم
لتذكرها ما كان من زيدان.

أرادت منى أن تهرب من هذا الثقل النفسي الخانق، وبسرعة
لتغيير دفة الحديث:

— "تعالى... تعالى أوريكي أنا رسمت إيه على الحيطه... وأنا
لوحدى بحتة تباشير كانت مرمية في كراكيب البدروم!".

جذبت نوران بخفة نحو الجدار، فرأت نوران رسماً لبنت تقف
وسط الحائط، وحولها أولاد كثير وبنت تانية بعيدة، واقفة
لوحدها...

فقالت منى بكل فخر:

— "دي أنا..... وإشارة لرسم البنت الملفت حولها الأولاد".

سألتها نوران ببراءة:

— "ومعنى اللوحة دي إيه وليه كل أخوتنا جنبك هما زعلانين من البنت اللي لوحدها الناحية الثانية ولا إيه؟".

توهج وجه منى بتوتر مفاجئ، وأدركت أنها في ورطة وأنها كادت تفضح غيرتها من فاتن، فتلعثمت قائلة:

— "لا... لا دي لسه اللوحة ما كملتش... هكملها الصبح، وهرسمك... وهرسم كل أخواتنا جنب فاتن الناحية الثانية...!".



وحينها علمت نورا ان البنت الوحيدة في الزاوية الأخرى من
اللوحة هي فاتن لكنها لم تشك لحظة في غيرة منى من فاتن أو
غيرها وببراءة الأطفال قالت:

— "بكرة اساعدك ونكمل اللوحة سوا؟"

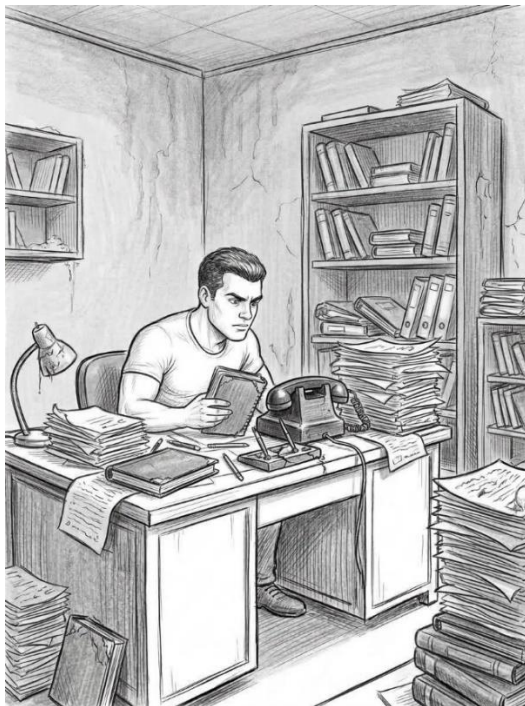
على الجانب الآخر من الدار، وبعيداً عن عيون الجائعين، دخل
عبدون غرفة "البابا" المغلقة.

أغلق الباب خلفه بإحكام، ورمى نفسه على كرسي المكتب، أسند
رأسه بين يديه يفكر في أزمة جوع الإخوان وهو يتمتم بغضب
داخلي:

"أكيد البابا اتحط في الموقف ده قبل كده... أكيد فيه حل... أكيد!"

ظل يقلب في محتويات المكتب بلا هدف، حتى وقعت عينيه على
الهاتف الأرضي الأسود القديم القابع في ركن مهجور على
المكتب، الهاتف المنقرض العالم من حوله لم يبقَ منه سوى هذا
الأثر على مكتب البابا.

لمعت في عيناه ومضة نجاة، فصرخ في نفسه: "السر فيك أنت!".



فتح الباب ونادى بذكاء طفولي على أصغر أطفال الدار شهرةً
بالمشاعبة ولقّب بـ "مضبوط":

"خد يا واد أنت هنا!".

اقترب الصغير ضاحكاً، فقال له عبدون بحنان الأخ الأكبر:

— "أنت كنت بتفضل تلعب مع البابا ٢٤ ساعة... هو البابا كان بيكلم حد في التليفون ده؟".

أجاب مضبوط ببراعة:

— "يااه... طول اليوم كان بيلمع فيه وبيتكلم مع ناس كتير بس مش فاكراً منهم غير عمو سعدأوي، وعمو محمد الشيخ، عشان كان البابا بيخليني العب معاهم في التليفون!".

عبدون بذكاء:

— "طب ما تعرفش أرقامهم؟".

مضبوط:

— "يا عم ما أنت في إيدك أجندة التليفون أهو... أكيد الأرقام فيها! ده أنت ذكي أوي يا عبدون".

ضحك عبدون وشده من أذنه بحب أخوي:

— "عبدون حاف كده يا ابن الإيه؟! أنا أكبر منك بيجي ١٥ سنة، وبعدين أنا مكان البابا!".

مظبوط متبسماً:

— "طب البابا كان بيلعب معايا... لعب معايا دلوقتي يلا!".

شعر عبدون بلحظة ضعف إنساني فاحتوى الطفل، وشده من إيده صارخاً في وسط الساحة:

— "يلا يا رجالة... صيادين السمك!".

خرج الأطفال يجرون خلفه، وعلت ضحكاتهم في أرجاء الدار وكأن شيئاً لم يكن.

نجح هذا الفاصل الطفولي في امتصاص غضب الصغار وإعادة الثقة المؤقتة لزعيم الدار الشاب.

حل الليل وأنتهي وقت اللعب، وتسلك عبدون بهدوء يدور على
غرف الصغار واحدًا تلو الآخر، يطمئن على نومهم،

يضع تحت رؤسهم ما تبقى من خبز مخزن في غرفة البابا،
ويسقيهم الماء بيده،

حتى فائن التي مر ليطمئن عليها واطمأنت هي الأخرى وهي
تري أن "أخاها الأكبر" ساهر على راحة الدار ولم ينم.

لكن عبدون نفسه لم يعرف النوم. كان يعلم أن الصباح سيأتي
والبطون ستصرخ مجدداً.

في عتمة الغرفة، فتح أجندة البابا المتهالكة، ووضع أصبعه على
أول اسم: "سعدأوي".

رفع السماعه ألو.

— "ألو... عمو سعدأوي؟".

صوت أجش من الطرف الآخر:

— "أيوه... أنت مين؟".

عبدون بصوت واثق:

— "أنا عبدون... من دار الأمل".

سعدأوي بدهشة:

— "أهلاً يا حبيبي... فين البابا؟".

عبدون بلا تردد:

— "البابا سافر وغاب حبتين... وأنا ذراعاه اليمين، أنا اللي

أنقذت اخواتي من الجوع وبأكلهم وبشربهم لحد ما يرجع، وكلهم

ادوني تفويض أعمل كل حاجة!".

سعدأوي بضحكة استهتار:

— "يا خبر هي وصلت لدرجة تفويض... بس أنت شكاك صغير
يا ابني!".

عبدون باستعلاء:

— "لا يا عمو... أنا مش بس الكبير، أنا أقوى شاب ممكن تقابله
في دارنا أو أي دار ثانية، ومعايا رجالة زي الورد وزى الجنيه
الذهب ببساعدون!".

سعدأوي بصوت ودود:

— "قولي يا حبيبي... عايز منى إيه؟".

عبدون:

— "محتاجين شوية أكل وفلوس لحد ما البابا يجي...".

سعدأوي باعتذار:

— "يا حبيبي من عينيا... بس أنا كل الولاد اللي عندي في الدار
الأطفال اللي عندي صغيرين... هابتلك الصبح عربية فيها شوية
أكل ينفع للكبار، ومع السواق فلوس عشان تشتري الباقي".

عبدون بحيرة:

— "بس أنا معرفش أشتري منن ولا أعرف حد هنا!".

سعدأوي ببساطة:

— "هو أنت جبت رقمي منن؟ من أجندة البابا أكيد! كلم باقي
الأسماء اللي فيها، هيساعدوك طبعاً... مش عشان البابا بس،
كمان عشان أنتم رجاله!".

عبدون:

— "أنا كنت ناوي أكرم عمو محمد الشيخ بعدك...".

سعدأوي: "طيب كلمه بس مش دلوقتي كمان نص ساعة...،
خلينى أكلمه أنا قبلك أشرح له الحكاية وافهمه الوضع الجديد ده
عشان يساعدك أكثر!".

أغلق عبدون السماعة، واستمر ليله الطويل يتخيل ما سيرسله
العم سعدأوي ويخطط ماذا يطلب من العم محمد الشيخ.

وفي وسط هذا الصخب الليلي، كانت فاتن تطمئن على الصغار،
وتتخيل بكر وهو يراقب من زنزانته، وتدعو لعبدون الذي أنقذ
الدار من الهلاك، وتدعو لبكر أن ينال الحرية قبل أن ترجع لتدخل
الطفلة الصغيرة في حضنها وتنام مطمئنة.

مع بداية الصباح، غلب النوم عبدون فاستند برأسه على كرسي المكتب وغط في نوم غامض. فجأة، تعالت أصوات الطرق على الباب الخارجي:

— صوت الصغار "يا عم البابا الجديد... افتح! إحنا بتوع سعدأوي!".

هَبَّ عبدون مفزوعاً من مكانه، وضع كاب البابا على رأسه، وشدّ تيشيرته ليبرز عضلاته بزهو، ثم هرع ليفتح البوابة الكبرى.

وقف أمام رجلين ضخمين نزلا من سيارة نقل كبيرة، فقلا بجدية:

— "إحنا جايين من طرف عمك سعدأوي... باعتلك الشحنة دي والفلوس، وعايزنا ندخل نتفرج على الدار وننقل له حالتها بنفسنا!".

وبدون تردد رحب بهم عبدون، قائلا:

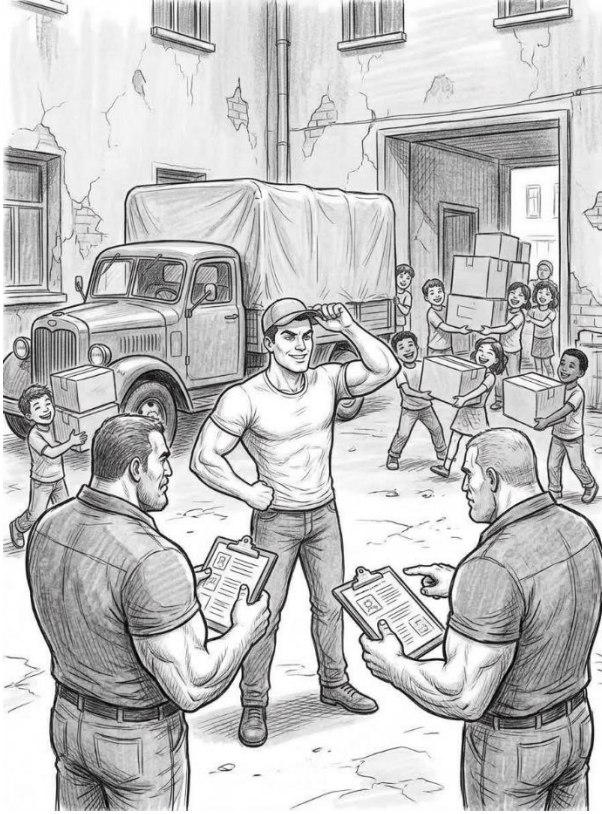
— اتفضلوا طبعاً الدار داركم

استعاد عبدون سيطرته المزيفة، وصرخ بأعلى صوت ينادي
على الصغار:

— "تعالوا يا ولاد... رحبوا بأصدقاء أخوكم الكبير عبدون!

عشان تعرفوا بس إني على وضعي، ومستحيل أخلي أخواتي
يناموا جعانين

— ده أنا لو ينفع اتباع هاتباع واجبلكم أكل!".



فرح الأطفال وهللوا، وركضوا نحو الشاحنة يغنون ويحملون
صناديق الطعام بفرحة غامرة نحو المطبخ.

في نفس الوقت، دخل رجالة "سعدأوي" يطوفون بأركان الدار؛
كان بكر من خلف قضبان البدروم لا يرى لكنه يسمع كل شيء
ويشعر بكل شيء،

مضطراً لتجرع مرارة صمته، ليس فقط لأنهم رجال الكفيل الذي
يمولهم، بل لا يستطيع من محبسه كشف تمثيلية عبدون أمام
الصغار.

سجل رجالة سعدأوي كل صغيرة وكبيرة في أعينهم قبل
لأوراقهم؛

بدءاً من موقع الدار المميز الذي يواجه ناصيتين،
مروراً بالأشجار المثمرة المهملة التي لو نالت قليلاً من العناية
لأثمرت أجمل الثمار،

وصولاً إلى مفاجأتهم بأن "الأيتام" ليسوا أطفالاً صغاراً، بل شباب
في مقتبل العمر قادرون على الإنتاج.

وسأل رجال العم سعدأوي أحد الأطفال بلطف:

— "مين أكبر واحد فيكم؟".

أجاب الطفل بفطرة:

— "بكر... بس مش واقف دلوقتي ياعمو، وبصوت واطي مع

سحبه صوت طفل يعتقد انه ما يقوله سر حربي:

— عشان عبدون حطه في السجن!".

رحل رجاله سعدأوي، ووقف عبدون في وسط الساحة منتشياً،

في غرور صامت أمام إخوته، كأنه قهر المستحيل.

لكن هذا الزهو لم يطول؛ تقدم نحوه شابين من أيتام الدار، وقالوا

بنبرة تساؤل واستنكار:

— "سمعنا الناس اللي كانت هنا وهما بيكلوا بعض... وبيقولوا

إنهم بيشحتونا الأكل! هو فيه دار تعيش على الشحاتة يا عبدون

إحنا رجالة ليه نمد إيدنا لغيرنا؟!

تكدست عروق جبين عبدون غضباً، ورفض أن يناقش منطقهم
من الأساس، فصاح بجدة واستعلاء سلطوي:

— "بصوا بقي... أنا ما عنديش وقت أضيعه مع ناس بتعارض
لأجل المعارضة!

— أنتوا معارضتكم هدامة... المعارض الحقيقي هو اللي يقدم
مشروع قدام مشروعي!" متيجوا بالمرّة مكاني وأكلو أنتوا
أخواتكم.

قاطعته فتاة بصوت بريء تتسأل بوجع الخوف المستمر:

— "هو الناس دي هاتفضل تشحتنا على طول... ما بكرة
يفلسوا؟".

ورغم أن الفتاة لم تكن تعارض، بل تسأل بجهل الأطفال الباحثين
عن الأمان،

ورغم أن البابا قد غاب ولم يعد يهتمها من يأتي مكانه طالما أن
لقمة العيش مضمونة،

إلا أن هوس عبدون بالسيطرة المطلقة لم يتحمل صوتاً خارج
السرب وصرخ بصوت أربع الساحة:

— "محدث هيعطل مسيرتي ولا انجازاتي... خدوا الثلاثة دول
على البدروم حالا!".

كان قرار حبس الشابين والفتاة التي لا تطمح في شيء سوى
رغيف العيش أسهل علي عبدون من قرار حبس بكر أو منى أو
حتى نوران.

ولا ندري هل اعتاد بكر الانتهاكات؟

ام من اعتادها هم سكان الدار؟

وهل كان أصبح القمع ضروريا لسلطة عبدون؟

أم انه أصبح إجراء اعتيادي في دار كانت دار الأمل.

انقض الأعوان على الأيتام الثلاثة، وعلت أصوات الاحتجاج
الخافتة حتى اختفت خلف الأبواب الحديدية الغليظة، في البدروم،
وسط صمت مطبق لا يخرقه سوى صدى أقدام عبدون وهو يسير
وحيداً فوق قمة من أوهام الرماد.

الفصل السادس:

يعيش يعيش يعيش

وبفضل العم سعدأوي كانت روائح اللحم المتبل تتصاعد من مطبخ الدار، حاملة معها هدنة مؤقتة مخدرة لأعصاب الأيتام الذين اجتمعوا في الجنيّة حول أواني الطعام؛ البطون التي كانت تنن قبل ساعات خلت واستكانت، والعيون التي كانت تترقب المجهول باتت تنتظر إلى "عبدون" بنظرات يملؤها الانبهار والامتنان .

كان عبدون يقف بينهم منتشياً بانتصاره الأول، يتحرك بخفة طفل عثر على لعبة كبرى، يوزع الطعام بيديه ويضحك فرحاً من قلبه .

لم يكن عبدون شريراً بالمعنى التقليدي، كان يؤمن ببراءة تامة أن قوته المطلقة هي طوق النجاة الوحيد للدار، وأنه حين يخطئ — إن حدث وأخطأ لا سمح الله — فما ذلك إلا إلهام عابر لم يفهم في وقته .

وفي وسط التجمع ومع الفرحة العابرة، والجميع يأكل من يد عبدون، وفي ذروة شعوره بأنه الأب والزعيم الملهم الذي لا يُرد له أمر،

جمع عبدون الأيتام حوله، وبنبرة أبوية حانية تقطر ثقة، قال :
— يا ولاد... عشان أحميكم من أي بلاوي جاية في المستقبل ومن أي خطر محتمل، عايز منكم تفويض علني؛ أي تصرف خطير أنا اللي هعمله لوحدي ومن غير ما أرجع لأي حد...
موافقين؟ "

الكل هز رأسه، وتعالى الهتافات موافقة مفوضة.

واعتبر عبدون هذا الهتاف بمثابة شيك على بياض، لم يهتم
بسؤال من يعترض، ولم يفكر في البدروم وسكانه .

عبدون لا يفكر في شيء الآن، مقتنع أنه أصبح زعيماً شرعياً
ولا حاجة لأي إجراء آخر .

وبعد انتهاء هذا اليوم التاريخي الذي خرج منه الأيتام ممن لا
يفكرون في غير رغيف الخبز في قمة الرضاء مهللين وعبدون
في قمة السعادة،

خلد الجميع لنوم عميق بعد امتلاء بطونهم، لا يشغلون أنفسهم بما
سيحدث بعد انتهاء طعامهم الذي منحهم إياه أصدقاء البابا عبدون،
أو بمعنى أدق وأصدق... منحهم إياه العم سعداوي .

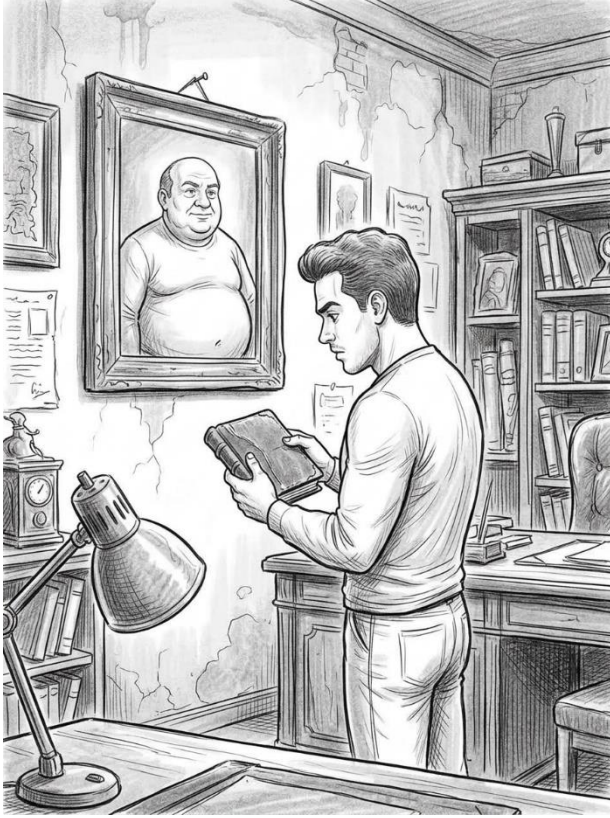
أما عبدون فقد عاد لغرفة البابا، عقله يقاوم جسده المنهك من قلة
النوم، محدثاً نفسه :

— أيوه أيوه، فين مصباحنا السحري... أجندة التليفونات
بتاعتتنا؟ "

وينظر عبدون لصورة البابا الغائب على الحائط :
— أجندتك يا عم البابا هي اللي هنتقذنا، بس خلي ده سر بيني
وبينك معلش؛

أنا كنت مضطر أقول على رجالة سعدأوي إنهم صحابي أنا عشان
العيال يثقوا فيا،

وأكيد أنت مش هتزعل صح؟
ولو زعلت حتى... المهم المصلحة العامة!



وأنا أوعدك مش هخلي ورقة في مكتبك هنا مش هشوفها ومش
هاستفيد منها، وهاعمل كل اللي في مصلحة العيال،
وأنت أكيد هتبقى فرحان، ومش مهم يقولوا دي أفكار مين، المهم
المصلحة العامة!"

ويعود عبدون ليجلس على كرسي البابا الذي لم يعد ينبهر به،

عقل عبدون منشغل بالسؤال الأهم :

— ماذا بعد أن تنفذ معونة عم سعداوي؟

وكيف يحصل على الوجبة التالية قبل أن يفتح الجياح أفواههم من جديد؟

عبدون يقلب في صفحات أجندة البابا وعقله يدور في سؤال واحد:
لما الأكل ده يخلص... ها نجيب غيره منين؟

سهولة حصول عبدون على أول إعانة من العم سعداوي حالت
بين عقله وبين أي طريق آخر لتوفير الموارد؛ فقط يفكر كيف
يحصل على معونة جديدة وممن؟

وفي البدروم، في العتمة والرطوبة، كانت مملكة بكر تتشكل،
ولكن بأسلوب خاص .

اليتيمان المعتقلان الجدد اللذان اعترضوا على الشحاتة دخلا
مجرورين، و"بكر" يجلس متربعاً على صندوق خشبي قديم،
وعينه تشران شراً.

نظر بكر إليهما وبصوت محشو بالغل :

— أهلاً أهلاً بالرجالة !

وبنظرات محملة بالاحتقار والشماتة، صرخ في وجهيهما بصوت
هادر يغلي بالمرارة :

— حلو عبدون صح؟

إيه، مالقتوش الأمان فوق على إيد سيدكم عبدون وجايين تدوروا
على الأمان هنا بعد ما بعتوني وصدقته؟!

— أنتوا السبب في اللي إحنا فيه ده! بس خدوا بالكم، البدروم
هنا مش زي دار تانية والبابا تحت غير البابا فوق

عبدون فوق، والبابا بكر تحت وزي ما قبلتم بالخضوع لعبدون،
هنا كمان هتخضعوا، بس معلى مش لعبدون...

البدروم مملكة بكر، ولو الاسم تقيل عليكم مشوها (بكروون)
هههه!

وزي ما قبلتم الحكم بالدراع، هنا بقي القانون الحكم بالأقدمية،
والأقدمية لي وحدي! إيه ده، أنا شايف في عيونكم خوف؟
تؤ تؤ تؤ تؤ، اطمنوا...

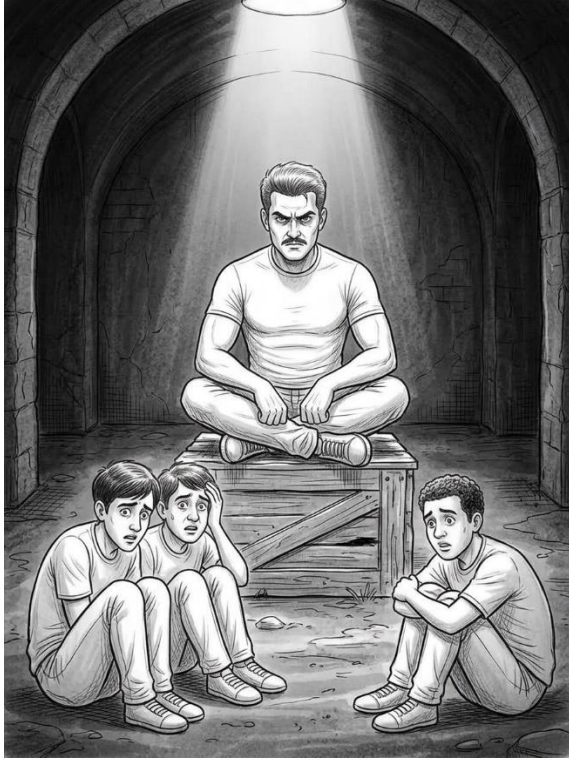
— لو اللي مخوفكم الضلعة فبكرة تتعودوا وتنسوا النور،

— ولو اللي مخوفكم الوحدة فبكرة كل أخواتكم اللي فوق يشرفوا
هنا بتعليمات عبدون!

— أما لو لا قدر الله خايفين على الدار فمتهلقوش؛ البابا راجع
وسلطة عبدون هتترنح وترجع الشرعية للأخ الأكبر...

بكر... بكر... يعيش بكر!

مش أنتوا هتفتنوا كده لعبدون؟ احفظوا بقي عشان تهتفولي!"



لم يكن الأيتام يتوقعان ما وصل إليه بكر نتيجة لحظة قهر كأننا
يظنانها عابرة ومؤقتة ستنتهي بعودة البابا! والدنيا قامت
ومعتقدش؛ خناقة وتخوين وصوت عالٍ، وبكر يثبت سلطته على
الكل عشان يقول إن القاع له سيد ثاني غير اللي فوق .

وفي الجانب الآخر من البدروم، سجن النساء حيث منى ونوران،
كانت الأوضاع مستقرة، وما زلنا نعيش رحلة تهرب "منى" من
"نوران" عشان ما تكملش الرسمة اللي وعدتها بيها،

فقط خشية أن تلاحظ نوران غير منى من فائن .

وفجأة... صوت المفتاح يترزع في الباب الحديدي، وطفلة
صغيرة من المعتقلين الجدد تدخل منكشاة على نفسها،

سجينة اليوم ماكانت ش بتحلم غير بلقمة أو حضن، ومش مهمة
مين يحكم الدار .

ركضت الصغيرة مباشرة نحو أقرب وجه لتختبئ في حضن
صاحبته، اطمأنت واستراحت بحضن منى . الصغيرة لا تخشى
شيئاً الآن، هل لا تدرك شيئاً مما يدور حولها؟ !

وقع عين الصغيرة على لوحة منى على الحائط، وهتفت بابتسامة
طفولية بريئة" :

— الله... حلوة أوي الرسمة دي! مين رسمها؟!"

وكان تلك اللوحة تطارد من رسمتها !

لكن وجدت منى في هذا السؤال مخرجاً مفاجئاً لترميم غرورها
المكسور أمام غيرتها،

وفجأة أشارت منى بأصبعها بحدة نحو نوران وقالت" :

— الهانم نوران هي اللي رسمتها!"

رمقتها نوران بنظرة طويلة مليئة بالذهول والاستغراب من هذا
الكذب غير المبرر،

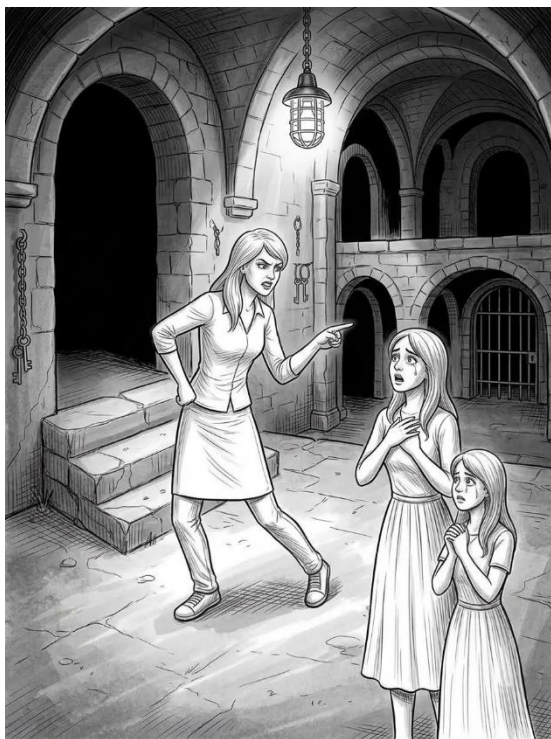
لكن صرامة ملامح منى وحدتها جمدت الكلام في حلق نوران .
واستغلت منى هذا السكوت فزادت في عجزفتها.

قررت التخلص من هذا الرسم العبثي إلى الأبد، وقالت للأختين
بصوت أمر " :

— امسحوا ده حالاً... وخلي الضيفة الجديدة هي اللي ترسم،
أصلاً نوران ما بتعرفش ترسم أصلاً "!

لكن منى بمجرد ما شافت الخوف في عيون البنات، ملامح وشها
اتغيرت في لحظتها؛

فتحت ذراعيها واحتضنت الصغيرتين وقالت بصوت دافئ
ومعسول " :



— معلى يا بنات، أنا بتعصب أحياناً من غير ما أقصد... بس
أكثر حاجة تضايقني إن حد أصغر مني يعصي كلامي.

اسمعوا كلامي، وهتشوفوا أجمل أخت...

لا، ده أنتوا هتشوفوا (ماما منى)!"

وبذلك، سيطرت منى على سجن البنات بحضن لم يكن مصطنعاً
وبحيلة ناعمة .

وبينما تتشكل ممالك بكر ومنى في البدروم... كان عبدون جالساً
وحيداً على كرسي البابا، يتصفح "أجندة التليفون" بفرحة طفل
وجد لعبة جديدة، متناسياً تماماً أن الأعراب تجولوا في كل زاوية
وسجلوا تفاصيل الدار وخيراتها .

وضع يده على التليفون ليتصل بـ الرجل الذي أثنى عليه سعدأوي
وأخبره أنه في ظهره "محمد الشيخ"،

عبدون:

— ألو، عم محمد الشيخ ".

صوت الطرف الثاني مكرر وثقيل " :

—مين معايا؟"

عبدون:

— " أنا بكلم حضرتك من دار الأمل... عم سعدأوي... " .

وقبل أن يكمل، يقاطعه محمد الشيخ " :

— أهلاً أهلاً يابطل! ازيك يا عبدون؟

عمك سعدأوي كلمني وحكالي عنك وعن وضع الدار وعن غياب
البابا، ويا حبيبي متقلّش خالص كلنا في ظهرك،

أنت ما تعرفش البابا بتاعكم خير ه علينا كلنا من سنين ربنا يجعه
بالسلامة!

خد بالك يا عبدون الدار اللي تحت إيدك دي كنز كبير كلها خير،
بس محتاجة اللي يعرف يديرها... وأنت قدها يا عوبد!"

عبدون مستبشراً وفرحاً بهذه البداية":

— شكراً عمو محمد، بس أنا كنت محتاج شوية حاجات، وعم
سعدأوي قالي أطلبها منك، عشان الدار اللي عنده كل اللي فيها
رضع وأطفال، واحتياجات الشباب عندنا مختلفة".

محمد الشيخ مقاطعاً :

— لا يا عبدون يا ابني مش عنده، بس مفيش ولا دار في المنطقة
فيها شباب زي اللي عندك، كلنا حالنا من حال عمك سعدأوي،
هو إحنا لو كان عندنا رجالة جامدين زيّك كان ده بقي حالنا؟!"

عبدون باستغراب وقلق " :

— ماله حالكم يا عم محمد؟ ده أنا متخيل إنكم أحسن مننا وعندكم
كل حاجة!"

محمد الشيخ بمكر يكاد يتجسد ليتسلل من سماعة التليفون " :

— إحنا فعلاً عندنا فلوس وأكل كتير وكل اللي تحلم بيه، بس ما
عندناش شباب زيّك تحمي... ولا دار في المنطقة

وغصب عننا بنجيب جاردات يحموننا ويحلبونا فلوس!"

عبدون" :

— يا عم محمد، كلنا ولادكم وشبابنا جاهزين يحموكم لو حصل
أي خطر، هو بس مسافة السكة".

محمد الشيخ" :

— قدها يا عوبد، هأنت قابل نتكلم في ده أكيد، بس المهم قولي
دلوقتي... محتاج إيه للدار عندك؟ "

عبدون" :

— عم سعدأوي بعتلنا أكل، وأخواتي أكلوا نصفه في أول يوم
عشان كلنا كنا جعانين من بدري أوي حتى من قبل البابا ما
يمشي،

ولحظة سكون بسطيه

محمد الشيخ:

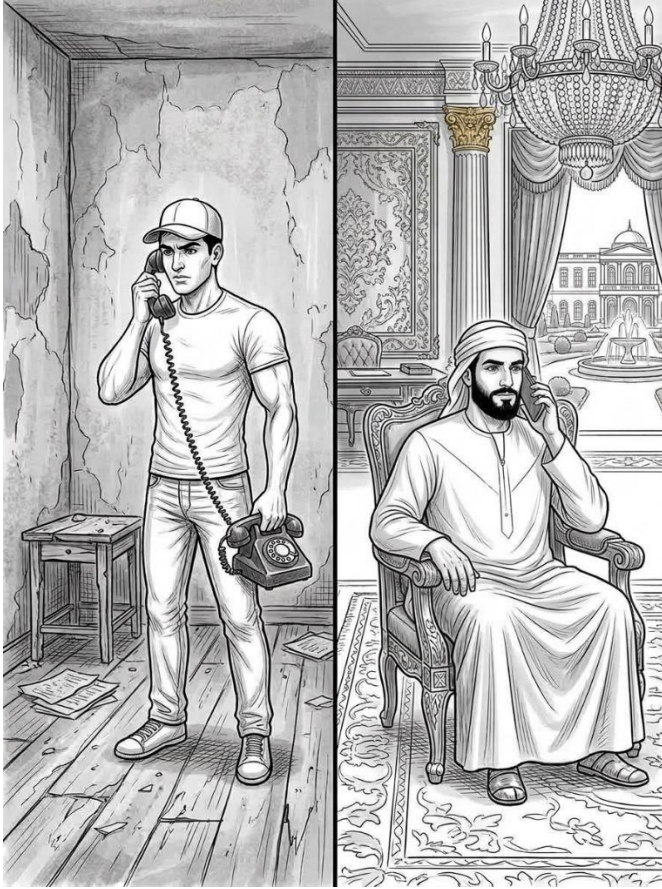
— م م م م م م م م —

استكمل عبدون كلامه:

أنا بس خايف الأكل يخلص وأخواتي يجوعوا تاني أنت متعرفش
احنا عددنا كبير ازاي،
واما الأكل يخلص ها نبقى في نفس المشكلة تاني ومش عارف
أتصرف".

محمد الشيخ":

— متقلقش يا عبده! قولت لك كلنا في ضهرك
والصبح يبقى عندك عربية أكل تاني وثالث لحد ما تقف على
رجليك،
أنا عايز الولاد ياكلوا ويهمني منظر كقدامهم، ماينفعش يجوعوا
وهو بيحكمهم واحد قوي زيّك".



عبدون" — :طب أطمع شوية كمان يا عم محمد؟"

محمد الشيخ" — :أطمع يا سيدي!"

عبدون" — :أنابيب الغاز لو خلصت مش هانعرف نعمل أي حاجة في الدار، وأنا معايا فلوس كنت واخدها من العم سعدأوي بس مش عارف أجيب أنابيب منين".

محمد الشيخ":

— أخ! ، دي بقى اللي بجد مشكلة،

بس كل حاجة ولها حل يا عبده".

عبدون":

—أنا مستعد لأي حاجة عشان نحل المشكلة دي".

محمد الشيخ":

—اسمع يا عبده... الأول أنا عمال أدلع فيك مرة يا عبده ومرة

يا عوبد، أنت ليه بتكبرنا؟

أنا مش عجوز أوى كده، اعتبرنا أشقاء!

وبيني وبينك اسم محمد ده ثقيل على قلبي، وممكن بينا وبين
بعض كده تنادينني باسم الدلع اللي بحبه؛ قولي (شيخون)،
لكن قدام الولاد طبعاً تقولي (عمو محمد - الشيخ محمد - عمو
الشيخ) ... الاسم اللي عجبك أي حاجة غير شيخون اتفقنا؟ "

رد عبدون بعفوية تامة" :

— محمد عليه الصلاة والسلام! ماشي يا شيخون ."

شيخون كاد يشرق وجهه من الضحك، ورجع قال بجدية :

"بص يا بطل، الغاز والبوتاجاز وأي نوع وقود وأي سلاح...

كلهم مفاتيحهم عند واحد بلطجي قريب منك، كده كده لازم تتعرف
عليه، المفروض أصلاً انه من ولاد عم البابا اللي اختفي

هو يعرفك كويس عشان هو متابع كل حاجة بتحصل في المنطقة
كلها لحظة بلحظة،

بس ده ماينفعش تكلمه، هاخلبكم تتقابلوا ولو من غير ما حد يعرف
وتنسقوا كل حاجة،

وهابعتلك الصبح الأكل اللي اتفقنا عليه.

وصحيح كنت هانسي، عايزك تشد على الشباب عندك، المنطقة
فيها لصوص وشبابك لازم يكونوا رجالة عشان يحموا الدار
عندكم وعندنا...

ده غير صحيح، الشجر اللي عندك في الدار ده جميل أوي ويبطلع
خير كثير وعمك سعدأوي قالي إنه مهمل خالص محتاج سمد،
هابعتلك الصبح عربية صغيرة فيها حاجات تعالج الشجر وتطلع
خيراته،

لكن أول قطعة طبعاً من نصيبي زي ما كان البابا بيعمل.

يلا سلام دلوقتي عشان ألحق أخلي الشغالين يجهزوا كل حاجة
عشان توصلك في ميعادها " .

قفل عبدون المكالمة وهو حاسس بأنتفاخ الزعيم؛ حكمه بقي أمان!

والدار كلها نايمة – بين سطح مخدوع بأحلام الزعامة، وبدروم
بيولع بالحقد والغيرة والخبائثة – في انتظار بكرة اللي أكيد شايل
في بطنه بلاوي أكثر .

الفصل السابع:

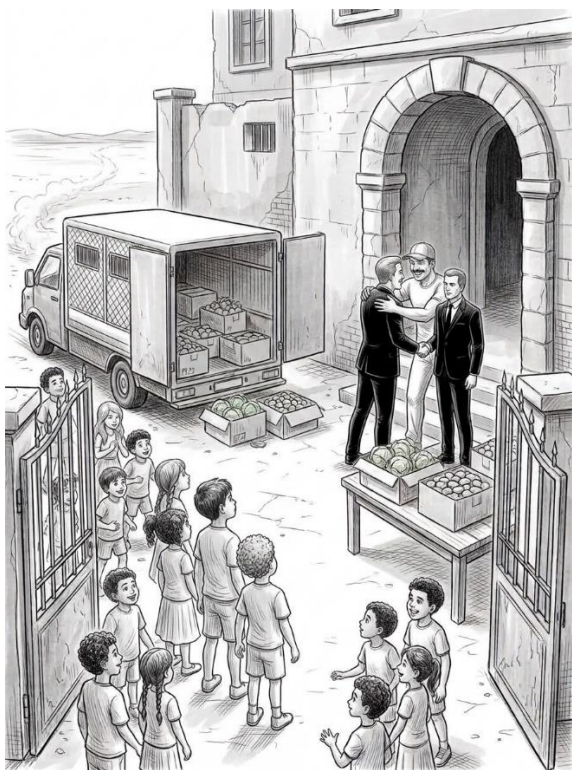
سينا وسونيا

فتحت الشمس عيونها على إيقاع الدق المتلاحق نفسه؛ دقائق ثابتة ومألوفة تضرب باب غرفة البابا، دقائق تذكر الجميع بصباح فانت حين هبطت عربية إعانات سعدأوي على الدار.

هبّ عبدون بذات اللهفة القديمة، ولكن الواقفين على العتبة لم يكونوا رجال سعدأوي؛ اليوم يستقبل الدار وفد رجال "محمد الشيخ"، يتقدمهم مندوب بلامح حادة مرأوغة وعينين تطفحان بالثقة، تقف خلفهم عربية محملة بالخيرات.

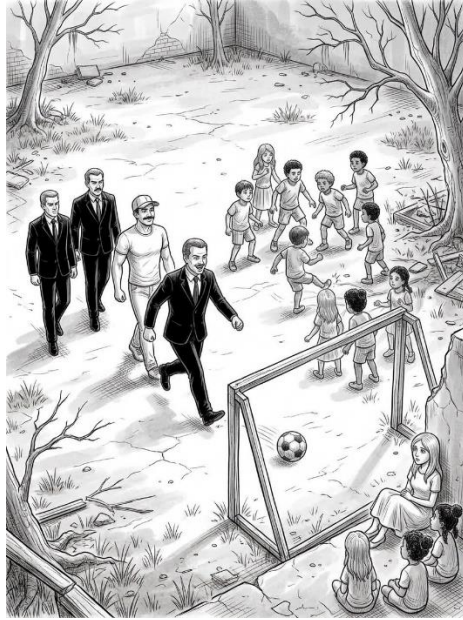
المشهد هذه المرة كان أكثر وضوحاً؛ فلم يكن مجرد طعام، بل كان صك الولاء الجديد يُطبع علانية على باب الدار أمام أعين جميع الصغار.

استقبلهم عبدون بلا تردد، دون حتى التبرير الواهي الذي
اختلقه سابقاً؛ فتح لهم نراعيه بالأحضان الحارة والترحيب المبالغ
فيه، ليتولى الضيوف بأنفسهم الكذب هذه المرة بادعاء أنهم
أصدقاء عبدون للتغطية عليه ومجاملته أمام الأطفال الذين
تجمهروا فرحين بالمعونة الجديدة.



وفي خضم الصخب، وبينما كان رجال شيخون يتجولون في بهو الدار يوزعون الابتسامات الصفراء والإشارات والسلامات الباهتة على أيتام الدار، انطلقت كرة طائشة من أقدام الصغار لتستقر قرب أحد رجال شيخون.

استلمها الرجل برشاقة محترف، ورأوغ بها في مساحة ضيقة قبل أن يسدها بقوة نحو المرمى، لتسجل هدفاً وتصطدم الكرة بقوة في وجه فائن وهي جالسة خلف المرمى في ركنها الصامت.



خرج سعيد من مقره الدائم داخل سيارة البابا قرب الباب، وانفجر
صوته حاداً يشق صمت المكان:

— "أنت بتعمل إيه يا بني آدم؟!"

تخشب عبدون خوفاً من أن تبدو مهابته مهزوزة أمام ضيوفه
الجدد، فوجه غضبه بالكامل نحو أخيه سعيد زاعراً فيه:

— صوتك ميعلاش يا سعيد، عيب... احترم وجودي!"

لكن سعيداً لم يسخر هذه المرة، بل وقف أمامه بمرارة وصوت
يقطر وجعاً:

— "بدل ما تزعق في أخوك اللي خايف على البنات، زعق في
الغريب اللي خبط أخواتك البنات!"

تجاوزَه عبدون ببرود مقيت وردّ بفضاطة:

— "غريب مين؟ دول مش غُرب، دول أشقاؤنا!"

سعيد بصدمة لم تُخفها سخريته المعهودة:

— "يا عم مش غُرب؟! بس دي فاتن... عارف يعني إيه فاتن؟
عارف يعني إيه فاتن؟!"

هنا فقد عبدون آخر ذرة من اتزانهِ، وقال بصوت هادئ:

— "تصدق يا سعيد... عقاباً ليك، من دلوقتي لبكرة الصبح أنت
هتبات في البدروم، وأما تطلع ماتاكلش بقي من أكل الأغراب
الوحشين دول!"

وكان الأطفال قد سُلِبَت إرادتهم تماماً؛ إما بالترهيب بعد حبس
الكبار أو بالترغيب بعد أن شاهدوا الإعانات

وتحولوا إلى ظلال تتحرك بأمر الصراخ، وهجم الصغار بلا
تفكير ولا توجيه ولا تكليف، وسارعوا بتكثيف سعيد وجره نحو
البدروم بلا شفقة.

أما فانتن، فوقفت تتابع المشهد بذهول وعيون تدمع بصمت،
عاجزة عن استيعاب كيف تحول الخوف على كرامتها وعلى
أخوتها إلى مسأومة رخيصة على مائدة السلطة،

وكيف تحول الحديث من "كيف أصيبت فانتن؟" إلى "هل هم
أغراب أم أشقاء؟".

كسر عبدون ثقل اللحظة بضحكة صفراء وهو يلتفت لضيوفه:
—"يلا يا بهوات... حياكم الله، ده موقف عادي بيحصل في كل
حتة، ودول شوية عيال ميعرفوش يعني إيه مسؤولية!" ويضحك
ويضحكون.

وذات الرجل محرز الهدف في وجه فائن يجد كرة بلاستيكية أخرى على يساره، يلتقطها وبذات الاحتراف يضربها بخفة ناحية الطفل الذي لاعبه في المرة الأولى...

ولكن الطفل هذه المرة أهمل الكرة وأخرج لسانه تعبيراً عن غضبه لـ "لاعب شيخون المحترف" صديق عبدون، أو بالأحرى رجل شيخون المتسلط.

وهو يخفي الإحراج وراء ملامحه الحادة وجه رجل شيخون حديثه لعبدون:

— "إيه يا عم، مش هاتشربنا حاجة في مكتبك يا مدير ولا إيه؟"

يدخل رجال شيخون مكتب البابا للمرة الأولى، يقول أحدهم:

— "أنا قلت نشرب معاك حاجة ساقعة على ما عربية السماد توصل، زمانها على وصول، هما كانوا بيجهزوها وإحنا بنتحرك من هناك."

عبدون:

— "ده شرف كبير ليا والله."

رجل شيخون:

— "هو الواد اللي كان بيتخانق بره ده إيه قصته؟"

عبدون مرتبكاً:

— "سعيد ده عيل تافه وعامل فاهم في كل حاجة، وأنا لو عليّ
كنت رميته في البدروم،

لكن هاعمل إيه العيال بتحبه ووجوده بره البدروم عواقبه أقل من
لو حبسته عشان العيال مش هاتسكت...

بس متقلقوش، أنا دلوقتي بكون أذرع ليا من خلالها هاقدر أسيطر
على كل حاجة،

وبرضوا من خلالها هالمع اللي معايا وهاشوه اللي ضدي،
متقلقوش عبدون على وضعه برضوا."

رجل شيخون الآخر:

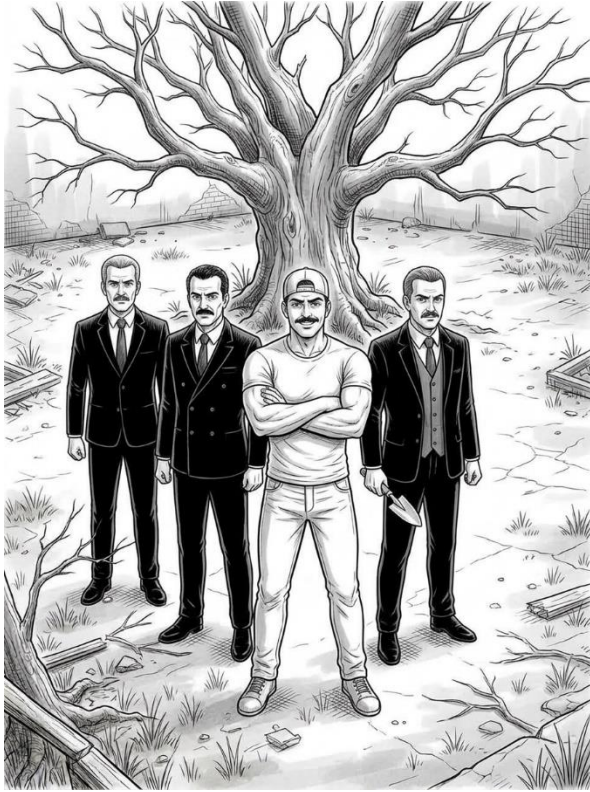
—"طيب، سامع صوت عربية برة بتزمر على الباب، تقريباً
عربية السمد وصلت، تعال نشوفها."

يخرج الجميع ليجدوا السمد في أنتظارهم.

رجل شيخون بصوت عالٍ:

—"يا عبدون بيه، عمك محمد الشيخ هيفرح أوي لو شاف
صورة جماعية لينا إحنا الثلاثة وإحنا بنزرع البذرة الأولى
هاينبسط منك أوي،

وأهو تعلقها عندك وتفكرنا دائماً وتفكر وعد أول قطعة من
خير جنيتكم ههههه!" ويحصل الغرباء على الصورة
ويرحلون.



وفي الأسفل، حيث عتمة البدروم، كان قد دخل سعيد محاطاً
بحراس عبدون.

استقبله بكر بلامح تعلوها الكبرياء والتعالي، محاولاً فرض
هيئته كزعيم للقاع:

بكر:

— "أهلاً يا سعيد، أنت شرفت."

سعيد:

— "في إيه يا ابني؟ أنت اتجننت تحت هنا ولا إيه؟ أنت مالك
بتتكلم زي المعلمين في المذبح كده؟"

جذبه بكر إليه هامساً بغیظ:

— "يا ابني احترمني.... أنا الكبير هنا وليا هيبة"

ثم يستكمل بكر كلامه بصوت عالٍ:

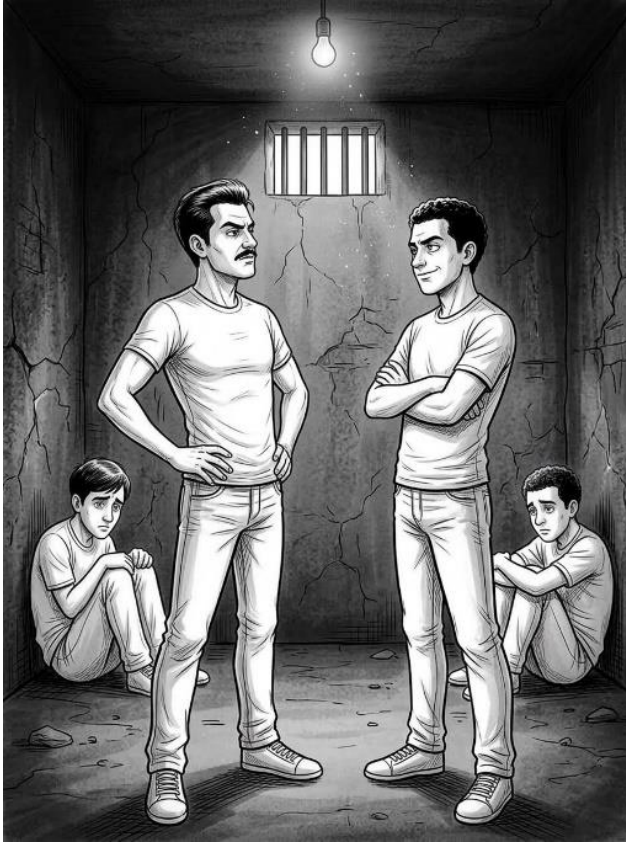
— "طمني يا سعيد على إخوانك فوق، أنا عارف إنهم متبهدين

بس أنا خارج من هنا قريب أوي وهاخرجك معايا وأخذ حقك
وحق كل إخوانك من عبدون الظالم ده،

اللي عامل فيها راجل وهو مافيش فيه نفخة!"

— ثم يعود ليهمس لسعيد:

"بس لازم تكبرني قدام العيال الصغار اللي هنا دول، وبكرة أنا
أحكم الدار وأنت من بعدي، بس احترمني وكبرني عشان نخلص
من عبدون!"



ابتسم سعيد ببرود وأجابه بسخرية وبلا اكتر اثار:

— "ماشى يا عم الهيبة، بس خلى عنك.... أنا محبوس ليلة واحدة
ومش محتاج حد يخرجنى.

وتصدق بالله؟ الواد عبدون ده عمل معايا واجب كبير!"

نظر إليه بكر والمعتقلون الآخرون باستغراب ودهشة ممزوجين بالفضول، فأكمل سعيد بعبثية واعية:

— "أصل أنا لو كنت فضلت بره على طول، مكنتش هاسكت على أي ظلم وكنت هاحارب عشان تخرج يا بكر أنت وكل المعتقلين....

يتنهد ويستكمل سعيد:

— لكن دلوقتي عرفت إنه مبقتش تفرق سينا من سونيا، وعبدون هو بكرون، وأي حد غيرهم يقعد على كرسي سلطة هابقي (أووون) زيكم،

وأنا الحقيقة مش عاجباني الحدوتة دي ومش هأناضل عشان حد ميستاهلش، واسم سعيد حلو مش هابقي مبسوط لو في يوم بقيت سعدون.... أنا هأقضي ليلتي دي نوم، والصبح مفارق!"

لم يتقبل بكر هذا التمرد المبكر في مملكتك، وقال بثقة شديدة:

— "لا لا لا حاسب بس.... ليلة، ليلتين، عشرة.... مش فارق،
والله لو دقيقة واحدة هتقضيها بقوانين بكر!

وفي قوانين بكر، المستجد اللي زيك يبات عند الدورة (وأشار
إلى الحمام)،

وكمات ملكش غير شبر وقبضة تنام وتقع وتقف وتتقلب، اعمل
اللي أنت عايزه في مملكتك الشبر والقبضة."

وفي الأعلى، كان عبدون قد أنهى لقاءه واستراح،
وغباء عبدون لم يتوقف؛ فبمجرد رحيل رجال شيخون ركض
مسرعاً نحو إخوته

وموجهاً حديثه نحو من قبضوا على سعيد:
— "قولولي عملتوا إيه في الظريف اللي اسمه سعيد؟"

يرد أحد الأيتام:
— "نزلناه البدروم عند بكر."

عبدون غاضباً:
— "يا أذكىء، هو أنا لازم أقول كل حاجة بنفسي؟! أنتوا كده
بتحطوا البنزين جنب النار، سعيد ميدخلش مع بكر!"

يرد يتيم آخر:
— "يعني ندخله عند منى؟" (بسخرية).

عبدون بعصبيّة:

— "ولا عند منى طبعاً!"

اليّتم مرة أخرى:

— "ما هو البدروم مفيش فيه غير طريقة مزنوقة وعنبرين، واحد
بتاع بكر والولاد، وواحد فيه منى والبنات."

عبدون بغباء تلمع عيناه ويقول لهم:

— "بيات في الطريقة المزنوقة دي، وهي ليلة واحدة يعني مش
حكاية."

وينزل رجال عبدون البدروم ليجدوا سعيد يحأول النوم في الشبر
والقبضة:

السجان:

— "يا سعيد...."

سعيد (ساخراً كعادته):

— "حاضر يا فندم.... إيه أبأنا الذي في السطح عفا عني؟!"

السجان:

— "لا، وأنت الصادق، هو عايز يحجّم شرور بكر فقال نعزلك
عنه، وبالمرة عقابك يزيد.... انتهاءتحبس انفرادي في الطريقة."

سعيد:

— "يا عم أهو أحسن من الشبر والقبضة، أنا هأقضي ليلة كاملة
ترييض... شكراً يا عم عبدون والله، ده كرم كبير والله!"

وفي الطريقة، سعيد يقترب من نظارة باب سجن النساء،
وبخطوات هادئة يدق بخفة على الباب ويختبئ سريعاً.

الوضع بالنسبة للسجينات يبدو غريباً؛ فلم يخطئ يوماً عبدون أو
أي من رجاله ليتعلموا معنى الخصوصية أو حرمة أي شيء،

ولا تتذكر البنات أن أحداً من عبدون ورجاله قد دق يوماً على
باب قبل دخوله، لا الآن ولا حتى أيام البابا الغائب.

نوران بقليل من الخوف:

— "مين؟"

سعيد (ما زال يخفي نفسه):

— "أنا بابا نويل، أو أقولكم أنا عفريت المصباح السحري....
بس أنا مش معايا هدايا، ولا أنا كعفريت المصباح أعرف أحقق
أمني عشان أنا هنا بتعاقب.... عبدون حبسني."

البنات بزهق:

— "ماشى يا أبو دم خفيف، يلا يا عم العفريت بالسلامة بقي
عشان هاننام عندنا مدرسة بدري."

سعيد (وقبل أن يكملوا آخر كلمة يقفز أمام النظارة):

— "بخ!"

البنات في قمة الفرحة واللهفة:

— "سعيبيبيد! وحشتنا أوي."

سعيد:

— "يلا بسرعة طمنوني عليكم، أنا هنا إعاره كام ساعة
وخارج."

البنات تضحك:

— "سيبك مننا إحنا، أنت وحشتنا... طمنا عليك وعلى إخوانتنا."

سعيد:

— "إخوانكم كلهم بخير، عايشين في نعيم عبدون الوهمي.....
طمنوني أخباركم أنتم إيه؟"

(ويستكمل سعيد كلامه):

— "شوفتوا صح اللي عامله بكر ده؟ راحت منه خالص بقي
عبدون في نفسه أوى!"

البنات ينظرن لبعضهن البعض، نوران تشير له على منى وتقول
بحرص وصوت هامس:

— "لا متقلّتش ما هو إحنا عندنا منى هنا أوسخ."

سعيد ضاحكاً:

— "مممم... سعد زغلول قالها زمان:

مفيش فائدة!"

البنات:

— "سيبك من سعد باشا ووفده دلوقتي، قولنا عبدون حبسك ليه؟"

سعيد بمنتهى الجدية:

— "شوفوا يا قمرات، أنا كل يوم كنت بصحي من النوم بقول

- استغفر الله العظيم من باب الاحتياط -

وامبارح بقي نسيت أقولها فربنا عاقبني وسلط عليا عبدون قال
حاجة معجبتنيش....

وكأي مصري عادي عنده ويا شقاه خصومة، قمت سبيت
للحكومة!

— حد فيكم يعرف مين اللي قال بيت الشعر ده؟"

البنات:

— "سعيد هيفضل طول عمره سعيد!

لا يا سيدي منعرفش، قولنا أنت مين؟"

سعيد:

— "لا ما هو أنا بسأل بجد،

أصل أنا مش فاكِر مين، وعشان كده عبدون باعتني أقضي ليلة
هنا يمكن أفكر

وأول ما وصلت... يابنات ودخلوني عند بكر، وتقريباً كده
عبدون حس إن ده خطر أبقى مع بكر، فقال يفصلنا عن بعض
فخرجوني أنام هنا في الطرقة."

"يلا تصبحوا على خير بقي يا بنات... بحبكم."

البنات:

— "بنحك يا سعيد!"

ويعود البنات للنوم في المكان المخصص حسب تعليمات منى.

ويبدأ سعيد في النوم، لكن تطارده أسئلة وأفكار قبل النوم، لم نسمع سؤاله لنفسه، لكننا سمعنا همماته يقول لنفسه:

— "ياااه... عبدون ده أغبى بني آدم في العالم، يعني عايز يفصلني عن بكر يحطني في طريقة أقدر من خلالها أوصل لبكر ولمنى ولكل المعتقلين..."

أنا أما أطلع من هنا مش هاعارض عبدون في حاجة... مش خوف لاء، بس الدماغ العبقريّة اللي عند عبدون دي نسيبها تشتغل وهي هاتغرق نفسها بنفسها." ويسرح ويدخل في نوم عميق.

وفي الأعلى، رن جرس تليفون غرفة البابا.

الأخ الأصغر مضبوط:

[illegible]

عبدون هرع مسرعاً وبلهفة التقط السماعه:

— "ألو... مين معايا؟"

المتصل:

— "أنا عمك سعداوى يا بطل."

عبدون:

— "ازيك يا عمو... شكراً أوي أنك كلمت عم شيخون عني!"

سعدأوي:

— "الله الله! هو أنت وصلت لشيخون؟! ده أنتم بقيتوا صحاب
على الآخر... محدش يعرف الاسم ده كثير!"

عبدون بصوت يبدو عليه التردد:

— "يا نهار أزرق... أنا نسيت وقلت الاسم قدامك! والنبي ما
تقوله إني قتلتك!"

سعدأوي:

— "متقلّش يا حبيبي.... أنا بتصل أطمّن عليك وأعرف إيه
حكاية الواد اللي اسمه سعيد ده؟"

عبدون في نفسه:

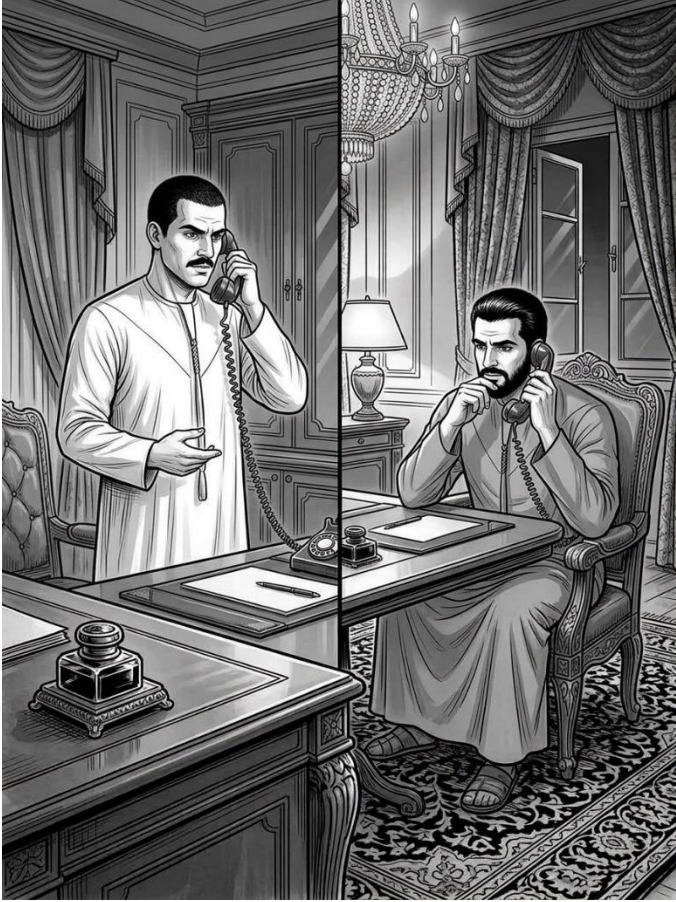
— "هو لحق يقوله؟ ده الناس لسه ماشيين!" وحاول التماسك
ورد بتوتر حقيقي:

— "لا متقلقش يا مولانا.... كله تحت السيطرة.... المهم يا عمو،
هانعمل إيه في موضوع أنابيب الغاز؟"

سعدأوي:

— "نعمل إيه... نعمل إيه... طب اقفل يا عبدون، هتصرف
وأرجع أكلمك تاني."

وأغلق سعدأوي الخط واتصل بالعم محمد شيخون.



سعدأوي (من غير ألو):

—"الواد استوى على الآخر يا شيخون."

شيخون:

— "لا سيبه حبه.... الواد لازم يتسعر ومهم نضغط عليه عشان
يفضل محتاجنا، ولازم نركبه على الكل... لا سعيد ولا بكر ولا
غيرهم."

(ويستكمل شيخون):

— "الواد عبدون هاييقي راجلنا، ولو سبنا حد من الشباب يقربله،
العيال في الدار عندك ولا عندي هايذكروا إن أي عيل يعرف
يدير أي دار، وأنت عارف الباقي بقي..."

من الآخر، لم كل الأيتام عندي وعندك يشوفوا بعينهم إن العيال
الصغيرة بيضيعوا دار الأمل، ولولا وقفنا إحنا الكبار مع الدار
كان الدار هاتقع."

سعدأوي:

— "بس خد بالك يا شيخون من حاجة مهمة، مينفعش ينتشر أخبار إن عبدون بيحبس إخوانه."

شيخون:

— "يا عم سيبها تنتشر عادي، ولما حد يتكلم نبقى نقفله إحنا ونخلص أي حكايات تحصل من برة برة ومن تحت تحت..."

ما هي طول عمرها كانت ماشية كده والكل عامل عبيط!

أنت يا بني لسه شاب متعرفش إنها دايرة بنفس السياسة دي من أكثر من ٣٠ سنة، من أول حكم البابا اللي اتبخر ده،

ياسلام على البابا كان راجل قديم وعارف الدنيا ماشية إزاي وظابط الأداء والله... يلا، أيام بقي."

سعدأوي:

— "معاك طبعاً... بس تفتكر عبدون ده ممكن نعتمد عليه عبدون ده وهو مصانش أول سر نقوله ليه وغلط قدامي من أول مكالمه وقال لي اسمك شيخون؟"

شيخون:

— "يا سعدأوي أنت لسه شاب صغير..."

احكي لأبوك كدة اللي حصل واسأله وهو هيقولك إن عبدون مغلطش ولا حاجة، وكان قاصد يستعرض قدامك شكل علاقته بيا."

سعدأوي:

— "معاك، بس هو ده حاجة كويسة ولا وحشة؟"

شيخون:

— "طبعاً دي كويسة أوي كمان!

ده كده البرنس بيقولك من تحت لتحت: أنا خلاص منكم وعليكم...
ومش بعيد كان مستني أنت كمان تقوله يدلعك ويناديك يا
سعدأوي.

بس إحنا مش هانعمل كده يا سعدأوي الله يكرمك، خلي كل واحد
فينا يرمى طعم مختلف...، أنت صنارة أنا شبكة،
أنا اصطاد النهاردة بطعم دود بكرة أنت تصطاد بجمبري ونبقى
نبدل الأدوار كل حبة لما نحتاج ده.

والمهم دلوقتي أنا مضطرب معاه يتعرف على ولاد عمنا عشان
يجيبوله الغاز،

والواد عامل ناصح وضارب على الفلوس اللي جائله مع أول
شحنة تبرعات بعتها أنت، سيبه يضرب على الفلوس دي...

وخلينا أنا أعمل معرفش حاجة عنها ونديله غيرها يشتري بها
من ولاد عمه أنابيب الغاز والبوبتاجاز،

وكل ما يضرب على فلوس اعمل عبيط، وبعدين هافهمك ليه...
وصحيح سيبه يومين لا تكلمه ولا ترد على تليفونات، وهاكلمه
أنا أقوله جايلك الدار بس بعد ما يكون استوى،

وهناك هأتصرف في كل حاجة... مش هاقولك تاني ياسعداوي،
لازم يبقى مستوي على الآخر قبل أول زيارة رسمية."

سعدأوي:

— "طب عشان أنا منلخبطش حاجة وعشان أبقي فاهم، عايزه
مستوي لحد فين؟"

شيخون:

— "بص يا سيدي ، إحنا مصلحتنا مع الواد ده، بس برضوا
مصلحتنا مبيقاش في حد في المنطقة كلها قوي ومش تحت
سيطرتنا..."

فإحنا هنركب الواد ده فوق إخوته ونغرقه خيرات وفلوس،
وبعدين لما يبقى تحت إيدنا وإحنا ظهره مش إخوانه، هانتعامل
بطريقة منسبهوش يموت ونلحقه في كل أزمة، بس برضوا
منلحقهوش لدرجة إنه مبيقاش محتاجنا في المستقبل.....

ركز بقي يا سعدأوي عشان نعرف نسوق."

سعدأوي (مقلداً صوت عبدون في أول مكالمة معه):

— "معاك يا عمو محمد الشيخ!"

أغلق الهاتف، وأغلقت أنوار دار الأمل وبدرود دار الأمل، وخلد الجميع للنوم في وقت الدار تقف فيه على حافة الانفجار، في ليلة لا ينام فيها إلا من يجهل عاقبة الوهم.

الفصل الثامن:

ملكة الصحراء

في صباح اليوم التالي، فتح عبدون عينه ليجد نفسه نائماً على كرسي البابا العتيق في غرفته المغلقة.

كان صوت الأطفال وهم يلعبون في ممرات الدار هو المنبه الوحيد الذي اعتاد أن يستيقظ عليه عبدون منذ أن تولى إدارة الدار.

عدّل عبدون جلسته، وطلّ برأسه من النافذة يداعب الصغار بابتسامة:

— أنتوا يا شياطين، الواحد ما يعرفش يغفل شوية منكم!

رد أحد الأطفال بصراحة الطفولة البريئة:

— ما هو أنت اللي خلاص مش بتنام في العنبر معأنا، وكل يوم ناييم هنا. ده حتى هناك في سرير، وأنت هنا بتنام قاعد على كرسي البابا!

ضحك عبدون بخفة وقال:

— أولاً، ده خلاص بقى الكرسي بتاعي، وحتى لو البابا رجع، مش هايقومني من عليه.

ثانياً، هو اللي يدير الدار دي يعرف ينام تاني؟

سأله الطفل بتشكك:

— يعني إيه؟ هو أنت مش قلت البابا راجع؟ وضربت بكر وحبسته لما قال إنه ممكن ميرجعش؟

تغيرت نبرة عبدون قليلاً وهو يحاول المراوغة وتدارك خطأه:

— هو أنا قلت إنه مش راجع؟

الطفل:

— ما هو أنت بتقول "لو رجع"، وده معناه إنه ممكن ما

يرجعش!

عبدون بضيق وصوت مرتفع يقطع الحديث:

— بقولكم إيه، أنا مش عايز لماضة.. يلا العبوا برة في الجنية،

أنا عندي شغل ومش فاضي دلوقتي.

خرج الصغار إلى الحديقة، وعبدون يقف متردداً أمام التليفون

محدثاً نفسه:

— أكلهم؟ مأكلمهمش؟ أكلهم.. ما أكلهمش؟

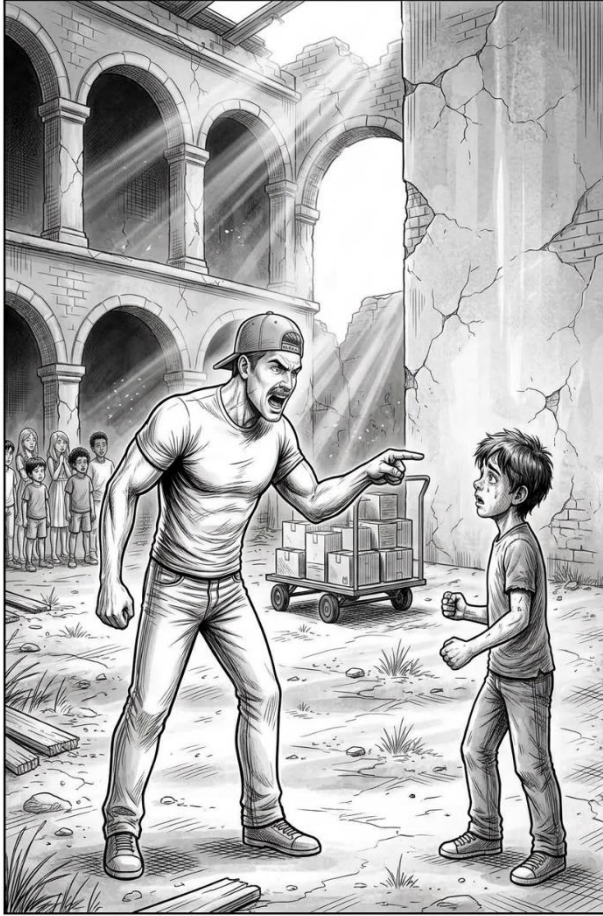
وفجأة.. ما هو أنابيب الغاز هاتفضي وتبقى مصيبة!

يقدم على الاتصال أحياناً ويتراجع أحياناً، وأخيراً حسم عبدون قراره استجمع قواه واستحضر شجاعته واتصل بالعم بشيخون ولكن.....لم يتلقى رد حأول مراراً وتكراراً فلا مجيب، غير وجهته ليتصل بسعدأوي وتكرر الأمر فلا مجيب.

تسلل القلق إلى نفس عبدون، فخرج لأخته يلعب معهم محأولاً إخفاء توتره، بين ضحكات الصغار.

وفي خضم التوتر، اندلع شجار بين طفلين يلعبان كرة القدم حول ما إذا كانت المخالفة ضربة جزاء أم لا.

انفجر عبدون في وجه أحدهما بكل ما يحمله من قهر مكبوت:
— في طفل متربى يزق لأخوه كده؟! أنت معاقب بالحبس
يومية عشان تنربي، وعشان الكل يتعلم مايعملش كده تاني!



وانقض رجال عبدون علي الصغير وسط نظرات الذعر والذهول
من باقي الأطفال الذين لم يفهموا سبب هذا الانفجار العصبي
المفاجئ.

كانت "فاتن" وسط المراهقات ترأقب ما يحدث،

إحدى زميلات فاتن وبصوت خافت قالت:

— يا فتون، مش ملاحظة إن عبدون بقى متغير أوي؟

أجابتها فاتن بوجع:

عندك حق، بس اللي شاغلني أكثر دلوقتي، العيل الصغير اللي

اتحبس عشان بس بيلعب!

ده عيل صغير يعني ماهوش بكر ولا سعيد.. مصيبة لا تكون

هي دي طريقة عبدون الجديدة مع أي حاجة مش تعجبه!

ده على كدة البابا لما يرجع هيكون الدار كلها في السجن.. ده لو

السجن.. أو البدروم أصلا استوعب عددنا كلنا!

ردت الفتاة بخوف:

— شوفي أنتي اختي الكبيرة، بس أنا عندي رؤية برضه...

نسخة عبدون الجديدة اللي شفناها من شوية دي، بتقول إنه لو
البدروم اتملي.. هاييني بدل البدروم عشرة!

أصلاً كمان مش محتاج بيني، كفاية أوي يعمل سور حوالين الدار
ويحولها كلها لسجن كبير.

وضعت فاتن يدها على قلبها:

— الله يسامحك أنا قلبي واجعني لوحدي... وكلامك ده وجعني
أكثر، ربنا يستر وإن شاء الله البابا يرجع ونخلص من الكابوس
ده بقي.

عاد عبدون إلى مكتبه، يحأول الاتصال بشيخون وسعدأوي ويمر يوم واثنين وثلاثة، ومازال عبدون يكرر الاتصال بشيخون وسعدأوي ولا مجيب، والطعام يوشك على النفاد، وأنابيب البوتاجاز تقترب من الصفر.

لكن الكارثة الأكبر لم تكن في الغاز ولا الطعام، بل في ذلك الطفل الصغير صاحب ضربة الجراء الذي أنتهت عقوبة الحبس يومين التي عوقب بها، وأسقطه الجميع من ذاكرتهم فظل قابع في ظلمة سجن البابا عبدون!

ومع صباح اليوم الرابع، جلس عبدون على كرسي جلبيه إلى الحديقة، وضعه في المكان المخصص لألعاب الأطفال يجلس وحيد بعد أن امر الأطفال بالابتعاد عن كرسيه وعن ألعابهم،

اعتقد الأطفال أن عبدون الظالم يجلس ليستمتع بالشمس وحده،

لكن الحقيقة أن عبدون جلس في الحديقة ليبتعد عن غرفة مكتب البابا وهاتفها الملعون الذي يذكره أن شيخون وسعداوي قد تخلوا عنه.

وبينما عبدون سارح في خيالاته كان هناك طفل صغير قادم نحوه
وبجواره الصغير مضبوط

وبغير الشغف المعهود الطفل الصغير:

— يا عبدون التليفون بيرن

وقبل أن يستكمل الصغير جملته، هبّ عبدون مفزوعاً كالغريق
الذي أُلقيت له طوق نجاة، وهرع نحو غرفة المكتب صارخاً
بلهفة:

— أيوه... مين؟

صوت الطرف الثاني في المكالمة:

— أنا شيخون يا عبده... طمني عليك، عامل إيه؟

تنفس الصعداء، وتحولت نبرته فوراً إلى الخضوع:

— أنا خلاص بقيت كويس سعادتك... كنت قلقاً أنت مش بترد
عليا ولا حتى سعدأوي بيه!

صوت شيخون ساخراً:

— إيه ده؟ إيه ده يا عوبد... سعادتك وبياه وكلام كبير إيه هو
احنا مش أشقاء وصحاب ولا إيه؟

لأ.. لو كده بقي بلاش تقولي شيخون، اندهلي بالاسم اللي مش
بحبه.. محمد!

رد عبدون بتملق:

— عليه الصلاة والسلام... مش القصد والله يا شيخون، أنا بس
مش عارف ليه سايبني بقالي ٤ أيام ومحدث بيرد عليا!

شيخون:

— يا عويد... هو ٤ أيام ده كثير يا ابني؟

ده الطبيعي، أنت بتدير دار عملاق، واحنا كل واحد فينا عنده مصالحه.

أنت اه أخونا، بس على رأي المثل بتاعكم: "اللي يحتاجه البيت يحرم على الجامع"،

واحنا عندنا مشاكلنا وأشغلنا فيها.. ولما فضيتاك كلمتك لوحدي.

قولي الأول، كنت بتتصل كثير ليه؟

عبدون:

— ما أنت عارف يا شيخون موضوع أنابيب الغاز، وكمان

الأكل عندي على وشك يخلص!

ضحك شيخون بصوت عالي:

— يا راجل! أنا قلت هاتتصل تقولي أنا جايلك أساعدك أنت
وسعدأوي في المشاكل اللي عندكم!

عبدون سريعاً:

— أنت بس تشأور وأنا أجيلك جري ما أنا قولتلك قبل كدة
مسافة السكة!

شيخون:

— لا يا عم، هجيلك أنا بنفسي... قولي، فاضي أمتي تستقبلني
عندك في الدار؟

توهج وجه عبدون بالفرحة:

— دلوقتي حالا لو تحب! ايه ده.. أنا لو عليا عايز استقبلك
امبارح مش بكرة.

شيخون:

— طيب خلاص، اديني يومين وأكلمك نضبطها.

عبدون بحزن:

— يومين... ماشي يا شيخون، ولو قدرت قبل يومين كمان في
أنتظارك بفارغ اصبر.

شيخون:

— طب سلام

عبدون:

— طب قبل ما تقفل، طمني على سعداوي... أصل مبيردش
هو كمان!

شيخون:

— لأ، هو في أحسن حال، هو بس بيعمل تجديدات كبيرة في
الدار عنده وكان مشغول فيها... عموماً أنا هاكلمه أخليه يتصل
بيك.

وظل عبدون جالساً يراقب التليفون في انتظار مكالمة سعدأوي
بفارغ الصبر، حتى غلبه النعاس وأغمض عينيه.



وحين أفاق على رنين الهاتف، نظر من مكانه على النافذة فوجد
أن ضوء الشمس قد اختفى، فعلم أن ساعات طويلة قد سرقت
وهو غافل في الانتظار.

رفع السماعه بصوت متهدج:

— ألو... مين

الصوت المقابل:

— سعدأوي باعبدون

عبدون:

— عم سعدأوي! يااه أخيرا يا صديقي، ده أنا بحاول أكلمك
بقالي كتير أوي، وشيخون قالي إنك هاتكلمني وفات كتير
وماتصالتش!

أتاه صوت سعدأوي الرخيم:

— معلى يا بطل، بس كنت بعمل تجديسات فى الدار عندي
شغلتنى.

عبدون:

— عقبالنا يارب...

سعدأوي:

— طيب طمنى عليك يلا.

عبدون:

— مش كويس والله يا سعدأوي، الاكل بيخلص وأنابيب البوتجاز
على وشك تخلص، وشيخون وعدنى يعرفنى على ولاد عمّه
عشان أخذ منهم أنابيب، وشكله نسينى وأنا مرعوب!

العيال عندي لو جاءت هاتخرج تنهب المنطقة كلها!

أنا خايف أقول لشيخون كده يفتكر ان أنا قاصد اهدد بالفوضى لا
سمح الله أو إنه يتخيل ان العيال الكبار الكتيبيير اللي عندي مش
تحت السيطرة.

سعدأوي بهدوء مريب:

— لا كويس إنك ماقولتش، أصل الكلام ده ميتفهمش غير إنه
تهديد... بس أنا عشان بحبك، فهمت قصدك.

بعدين متقلقش، الكل عارف المخاطر اللي هاتحصل لو دار الأمل
وقعت!

عبدون:

— أنا مش بس مش عايز الدار متقعش لأ... أنا عايز الدار تكبر
عشان الفوائد اللي هاتعود على الكل لو كبرت!

سعدأوي:

— مممم... مفهوم، مفهوم، مفهوم... طيب قللي، أساعدك
إزاي دلوقتي يا عبدون عشان تعدي الأزيمة؟

عبدون:

— أنا محتاج شوية أكل أو فلوس أجيب أكل عشان اخواتي
ميحسوش أنا مش عارف أتصرف ولا قادر أبقى البابا!

سعدأوي بدهشة مصطنعة:

— فلوس؟! هو أنت خلاص عرفت تشتري احتياجاتكم منين؟

عبدون:

— لأ... ما هو ده كان هيبقى الطلب الثاني... عايزك تكلم أنت
شيخون يجي بسرعة، بس كأنك عملت ده من نفسك مش أنا اللي
قلناك!

سعدأوي:

— مش سهل أنت برضو يا عبدون... وعموماً، أنا هابغتك أكل
وفلوس الصبح، وسيب موضوع عمك شيخون عليا... أنا هاقفل
معاك دلوقتي وأكلمه.

أغلق عبدون التليفون، ولم يتحرك من كرسيه وهو يتخيل مشهد
دخول الطعام صباحاً بعد غياب أربعة أيام بلا إعانة.

وبعد الفجر مباشرة، وقبل أن تشرق الشمس، أخرج عبدون
كرسيه مرة أخرى ليضعه ليس في ساحة الألعاب كالبارحة ولكن
أمام بوابة الدار الكبيرة في مواجهة سيارة البابا القديمة المعطلة؛
حيث المكان المفضل لسعيد.

تذكر عبدون أخيه سعيد فجأة فنادى على أحد الحراس (زيدان):
— يا زيدان، هو أنتوا خرجتوا سعيد من السجن زي ما قتللكم؟

زیدان:

— آیوه طبعاً... تاني يوم على طول يا فخامة.

عبدون:

— امال مش بان ليه؟ روح اندهولي!

زیدان:

— بس هو نايم يا يافندم.

عبدون بعصبيه وصوت مرتفع:

أما أقول حاجة تنتفذ.. صحية ويجيلي حالا!

وبعد دقائق معدودة، حضر سعيد متثاقلاً وقال:

— عايز إيه يا عبدون؟

عبدون:

— مخنفي أنتيا سعيد قولي مش باين ليه؟ إيه خرجت ومطلعكش
صوت يعني؟ ده أنت طلعت خفيف سجن ليلة واحدة تعلمك
الأدب!

نظر سعيد لزيدان نظرة ساخرة ثم التفت لعبدون:

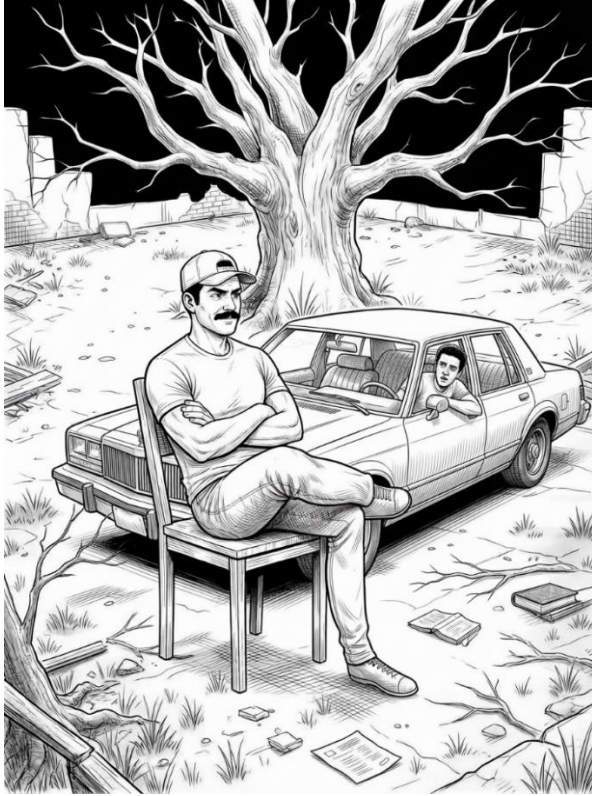
— يا عبدون، فوق لنفسك... أنت مين أنت عشان تعلم حد
حاجة؟

نظر عبدون لزيدان:

— امشي أنت دلوقتي وسييلي سعيد، أنا هاربيه.

التفت عبدون لسعيد بنبرة وعظيمة:

— يا بني، أنت أصغر مني... وأنا اللي بحمي الدار دي، روح
شوف المنطقة كلها خربانة إزاي حوالينا، مفيش دار واقفة على
رجليها غيرنا!



ضحك سعيد باستهزاء:

— أنت مصدق نفسك يا عبدون يا حبيبي؟

لو مفيش دار غيرنا واقفة على رجليها، مكنتش هاتلاقي حد
يشحتنا الاكل اللي عمال تضحك بيه على الأيتام الغلابة اللي
مصدقينك!

عبدون:

— هو يعني عشان في دار ولا اتنين زي بتوع شيخون ولا
سعدأوي واقفين على رجليهم يبقى الدنيا حلوة خلاص؟ شوف يا
عم الباقي كله خربان إزاي!

سعيد:

— شمعون مين؟

عقد عبدون حاجبيه بضيق:

— مش شمعون! بقولك شيخون.. ده اسم الدلع بتاع عمك محمد
الشيخ!

سعيد:

— بعيدا عن إنه عمك أنت بس الاسم ده طب وده ملفتش أنتباهك
لحاجة؟

عبدون:

— حاجة إزاي يعني؟

سعيد مبتسما ابتسامه غير مفهومة:

— لا لا لا ، متفهمنيش غلط... أقصد يعني إنه سايبك تدلعه...
وعموماً يا عبدون، أنت عندك حق، كل المنطقة خربانة ولازم
نحمد ربنا على حالنا... أو عدك هاعمل ده،

بس عندي طلب: زي ما أنا هابص على الوحش وأحمد ربنا،
وأنت بص على الناس الكويسة وقول يارب نبقي زيهم مش ده
دورك برضوا ياقائد؟!

واستكمل سعيد ببرود:

— تسمحلي أكمل أقعدة في عربية البابا ولا هايضايق فخامتك؟

رد عبدون بحدة:

— لأ، هايضايقني... يلا على عنبرك، والكلام ده ميتحكيش
للعيال الصغيرين، أنت عارف اللي بيضايقني بيحصله إيه...
الطريقة المزنوقة بتربي!

سعيد:

لا ده مفهمتش حاجة من اللي قولتها عموما تعليمات سعادتك يا
باشا..

بس صحيح، هو أنت فاكِر إنِي اتربيت ومش بتخانق معاك عشان
ليلة في السجن؟

لا والله أبداً، أنت بس عملت معايا واجب من غير ما تاخذ بالك!

عبدون مندهشا:

— إزاي يا فيلسوف عصرك وزمانك؟

سعيد:

— أصل أنت من غير ما تقصد ورتتي إنك مش أوحش مني
ولا من بكر ولا منى أنت مش لا من أي حد يا عبدون... احنا
كلنا شبه بعض، كلنا تربية البابا، كلنا ولاد أوسخ تجربة وأوسخ
مرحلة عدت علي الدار دي

مش فارقة مين بيظلم ومين بتظلم.. كلنا كده كده هاندوق من نفس
الكاس..

اطمن يا عبدون، أنا فقدت الشغف وهاسيبيها تخرب على الاكل
وأنا في حالي لحد ما تتهد على دماغنا كلنا ونخص بقي...

وزي ما قلت للبنات تحت للبنات هاقولك وهاقول لأي حد.. مفيش
فايدة!

ورحل سعيد، وبقي عبدون ينظر الإعانة وهو يشير لأخيه
المفارق:

— يلا يا عم، هي ناقصاك أنت كمان عالصبح!

وظل عبدون جالسا منتظر الإعانات بفارغ الصبر يتأمل سيارة
البابا المتهالكة في صمت،

ويبدأ الأيتام في الاستيقاظ يخرج واحد تلو الآخر من عنابرهم
ليداعبهم الأخ الأكبر والقائد والمعلم عبدون

وذنه مشغول بالإعانات وعيناه معلقتان بالبوابة الرئيسية للدار.

وأخيرا وصلت شاحنة الإعانات، وبدأ الأيتام بلا تعليمات في نقلها
إلى المطبخ كأنه أصبح عملاً اعتيادياً.

في هذه المرة، لم يسأل أحد، ولم يناقش أحد، ولم يفرح أحد أو
يحزن.. كان الاطمئنان المؤقت في نفس عبدون هو التغيير الوحيد
الذي أحدثته الإعانة.

اقترب مندوب سعدأوي هامساً لعبدون:

— سمو الأمير سعدأوي بيقولك كلمه ضروري جداً... وبكرة
جايلك شريكنا عشان يعرفك على صحابه!

ولم يهتم عبدون بأي شيء مما قاله المندوب سوى جملة "شريكنا
جاي بكره"، وفهم بسهولة أنه يقصد "شيخون".

فرغت الشاحنة حمولتها ورحلت، فوقف عبدون في وسط الساحة
وبصوت حاد:

— كله يجمع هنا... وانهدولي اللي جوة كمان!

وبعد أن تجمّع الأيتام، تحدث عبدون بقوة وملامح حادة:

— النهاردة مفيش هزار ومفيش لعب... في شغل بس!

الدار دي لازم تبقى بتلمع، ولازم كل حاجة تمشي زي الساعة...
النوم بدري ساعتين بعد ما كله يستحمى وينظف نفسه،

والكل يلبس كويس عشان في ضيف مهم جداً جاي بكره.. هناقش
معاه شراكة استراتيجية تودي الدار دي في حنة تانية زي ما
وعدتكم!

ولم يفهم الأطفال شيئاً سوى أنهم سيحرمون من اللعب،
ولم يرد أياً من الأيتام كلمة على عبدون وتحولت الدار إلى خلية
نحل تنفذ التعليمات بغير فهم أو حتى فضول يدفعهم لمعرفة أسم
الضيف المنتظر

وفي الثامنة مساءً الجميع في هدوء تام قد خلدوا في نوم يفقد
الأحلام.

وفي صباح اليوم التالي، كان الجميع جاهزاً من الشروق بالملابس المهندمة حسب التعليمات.

وما هي إلا لحظات حتى اقترب أسطول من السيارات الفارهة من بوابة الدار.

وقف عبدون خارج البوابة ينتظر لحظة الترحيب بشيخون.

ترجل شيخون من إحدى السيارات الفارهة، فاستقبله عبدون استقبال الفاتحين، يقبله يميناً ويساراً غير هابٍ بمظهر أمام إخوته أو رجال شيخون.

دخل شيخون الدار عينيّه تلتقط صوراً فتوغرافية لكل صغير وكبيرة ويردد ما شاء الله — ما شاء الله — ويرفع يده لتحية بيده الأيتام الذين تجمعوا بأوامر عبدون يميناً ويسار مهللين مرحبين بضيف حاكمهم البابا عبدون.

وصل عبدون وضيغه لغرفة البابا، عبدون مشيرا لكرسي البابا:

— اتفضل هنا يا مولانا!

شيخون بتواضع مزيف:

— لأ يا صديقي، ميصحش... اقعد أنت هنا.

عبدون:

— لأ خلاص، خليني جنبك هنا.

جلس عبدون على كرسي الضيوف في مواجهة شيخون (أمام المكتب)، فقال شيخون وهو يلتقط بعينه تفاصيل المكان:

— يااه... الدار زي ما هي، مفيش حاجة فيها اتغيرت... تحسها بقت آثار كأنها اتبنيت من آلاف السنين... هو أنت تعرف عمر داركم دي كام سنة يا عبدون؟

عبدون:

— مش عارف والله بالضبط، اللي أعرفه من زمان أنها تاني
أقدم دار في المنطقة كلها.

شيخون:

— ده حلو طبعاً... بس هي مش بالتاريخ يا صديقي، بالحاضر!
واحنا عايزين الحاضر بتاعكم يبقى بنفس عظمة تاريخكم..

وصحيح بما إننا جبنا سيرة التاريخ.. إيه العربية اللي من العصر
الحجري اللي على الباب دي؟

ابتسم عبدون بإحراج:

— دي عربية البابا القديمة... كان دايماً يودينا بيها المدرسة
واحنا صغيرين، بس مع زيادة أعداد اللي بيروحوا المدرسة بقي
في أتوبيس بياخدنا ويرجعنا.

وينتبه عبدون فجاً ليقطع حديثه بنفسه:

— أخ صحيح، المدرسة! أنا كنت ناسي الموضوع ده خالص
أنا لازم أجهزها من دلوقتي.

شيخون:

— يا عم، إحنا في إجازة الصيف، ومن هنا لبداية الدراسة تكون
الدار وقفت على رجليها وظبطت الأمور.

عبدون:

— عندك حق والله المهم دلوقتي الدار تقف علي رجليها، وبعدين
نشوف موضوع التعليم، اصله عمل ايه التعليم لدرا ضايع

شيخون:

— يبقى متفقين مش مهم تعليم على الأقل دلوقتي
المهم بالنسبالي حاج تانية أهم بكثير...

عبدون:

— قولي طبعاً واعتبره حصل

شيخون:

— وأنا داخل، شايف إختك في الدار شباب كبيرة مش أطفال

وده حلو طبعاً

بس لازم تاخذ بالك ان ده زي ما هو مفيد زي ما هو يخوف...

لازم العيال دي تشوفك على وضعك وأقوي من أي حد فيهم حتى

أقرب رجالتك لازم محدش فيهم بفكر حتى يقرب من الكرسي ده

— ويشير لكرسي البابا

وبنظرة حاده يستكمل شيخون حديثه:

لازم يعرفوا ان اللي هايقرب لكرسيك عبدون هايشيله من على

وش الأرض شيل!

بعد سكون للحظات استطرد شيخون:

— مهم أوي ياعبدون الشباب المساعدين ليك رجالتك زي اللي واقفين حراسة على الباب دول يبقى ليهم معاملة خاصة...

لازم تتغنغهم أكثر من الباقي، طول ما هما أقوياء ومخلصين ليك، أنت في أمان وفوق الكل...

وخذ المبلغ ده خليه معاك، ده لرجالتك مش للدار.

ثم أخذ شيخون نفساً عميقاً وأكمل:

— وشوف بقي يا عوبد... أنا جيت النهاردة عشان أكبرك قدام إخوتك ويطمنوا إنك كبير والكل بيخاف منك وبيحبك وبيحترمك جوه الدار وبره الدار...

وكمان عشان حاجة مهمة مكنش ينفع أقولها في التليفون!

عبدون:

— أمرك يا شيخون!

شيخون:

— موضوع أنابيب الغاز... أنت مصلحتك تشتريها من دار
قريبة جدا منك هنا... هم ولاد عمنا مش أغراب يعني...

أي نعم بلطجية ومكروهين، بس هما بيحبوك ومصلحتهم
معاك...

هايقفوا في ضهرك أكثر مننا حتى، بس لازم توريهم أنت إزاي
بتحبهم!

عبدون:

— أعمل إيه طيب؟

شيخون:

— ولا حاجة... غير إنك تلمح ليهم إنك منهم، وتتكلم عنهم كويس، وتظهر لهم إن كل الشباب الشداد اللي عندك تحت سيطرتك...

وخليك صريح معاهم، قولهم أنا محتاج أنايبب غاز على طول... وحتى لو باعوها ليك بالغالي، اشتري بكل اللي معاك، وإحنا في ضهرك لو محتاج أي حاجة المهم تعمل علاقات قوية مع الناس دي.

عبدون:

— طيب أتواصل معاهم إزاي؟

شيخون:

— بص... أولاً مينفعش يجوا هنا علني كده، لازم تقابلهم بره عشان إخوانك ميشوفوش.

عبدون:

— ما هو إخوتي كده كده هایشوفوا الأنابیب جاية من عندهم،
وأنت بتقول إن الكل عارف إنهم بلطجية، وإخوتي هایشوفوا حتى
لو من زمايلهم في المدرسة لما تخلص إجازة الصيف!

قطب شیخون حاجبيه بضيق:

— أنت بتضایقني جداً على فكرة!

قلناك سيبك من موضوع التعليم ده خالص، مش موضوعنا
دلوقتي.. ولما الدراسة تبدأ أبقي قول لأخواتك:

"أنا مش عارف آكل، مش عارف أشرب، مش عارف أعالج"..
وتقولولي تعليم؟!

أنتوا ماتعرفوش إن في حاجة اسمها فقه الأولويات؟!

شیخون لا یقاطعه أحد:

أما موضوع يعرفوا الأنابيب جاية منين، فدي آخر حاجة تقلقك،
طول ما هما جعانين مش هايسألوا عن أي حاجة تخص الأكل..
لا هو جي منين ولا إزاي ولا بكام ركز يا عوبد في الكلام... طول
ما هما إيه!

عبدون:

— جعانين يا شيخون عندك حق والله يا شيخون... ربنا خليك
لينا

بس والنبي تنسق المقابلة أنت وتقولي أقابلهم فين وأروح إزاي؟

شيخون:

— أخ... تصدق موضوع "تروح إزاي" ده مفكرتش فيه...
طيب اتصرف أنت وصلح عربية البابا اللي بره دي عشان تبقى
جاهز تتحرك بيها.

ضحك عبدون بسخرية:

يعني أنا مش عارف أروح مشوار أقابل ولاد العم، هاروح
مشاوير أجيب قطع غيار وعدة تصلح؟!!

شيخون بابتسامة مأكرة:

— تصدق عندك حق! بس أنا عندي فكرة حلوة نضرب بيها
كذا عصفور بحجر واحد..

عبدون بحماس:

— معاك في أي حاجة قولي.

شيخون:

— أنت تسيب عربية البابا الخردة أو اقولك أنا اشتريها منك
بس من غير ما حد يعرف اكنك بترميها عشان مش شغالة وعالز
تعمل تجديدا في الدار وأنا هاخذها احطها في متحف عامله للولاد
عندي في الدار،

وأنت تجيب عربية جديدة بقي حاجة فخمة جداً، بحيث إخوتك
يعرفوا كويس أنت مش بتدير الدار بشكل مؤقت لأ...

أنت بقيت البابا الجديد رسمياً ...

عبدون البابا الجديد القوي والمختلف عبدون باشا في نفسه كدة!

ثم يهمس شيخون في اذن عبدون لازم يشوفوك كده.

وبالنسبة للعربية إيه اللي عايزك تشتريها.. فهي عربية فخمة جداً

شبه العربية اللي أنا راكبها بره!

لمعت عينا عبدون بتلهف شديد، وقطع شيخون حديثه المعلق به

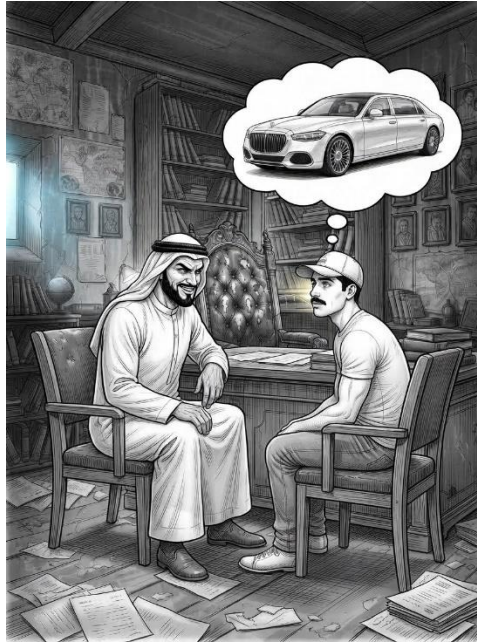
شغف عبدون ليشرب قطرات من الماء:

— لا مؤاخذة يا عبدون، عطشت فجأة...

بص يا سيدي، في عربية اسمها "ملكة الصحراء"... دي
هاتبهرهم وبعدها كلها هایشوفك كده اخواتك وغير اخواتك
اعدائك قبل اصدقائك!

عبدون متحمس:

— ودي بكام؟



شيخون:

— لا... ملكة الصحراء دي غالية أوي بس وجاهة برضوا!

عبدون:

— طب ما أنت عارف الي فيها هانجيب فلوسها منين؟

مال شيخون برأسه للأمام:

— من ناحية الغرب كده... في كام دار متقدمين أوي، ومش
من مصلحتهم الدار عندك تقع...

وأنا في الكام يوم اللي غبت فيهم عنك، كان في شغل بيني وبينهم،
وجت سيرتك وحسيت منهم إنهم ممكن يساعدوك.. حاول تستلف
منهم، ولما الدار تقف على رجليها نرجع اللي استلفتوا.

عبدون بتلهف:

— ياريت والنبي يا عمو شيخون!

عقد شيخون حاجبيه مرة أخرى:

— هههه... مش لايق عليك دلوقتي "عمو" دي خالص!

وبعدين أصلاً مش راكبة.. يا تقول "يا شيخون" يا تقول "عم محمد الشيخ"، إنما "عمو" قبل اسم الدلع دي مضحكة جداً بصراحة!

عبدون:

— شيخووون... اللهفة على أفكارك دي لخبطتني... طيب قولني، هما برضه لازم أروح ليهم زي ولاد العم؟

شيخون:

— لأ... دول بيعملوا كل حاجة في العلن،

بس لازم تديهم ضمانات إن فلوسهم هاتصرف في السيطرة على الدار...

واستكمل شيخون:

— ولازم قدام أيتام دارهم ودارك، تقولوا إننا بنضمن إن الفلوس دي هانتصرف على "التنمية المستدامة وإصلاح الهيكل الإداري للدار"!

عبدون بذهول وبصوت منخفض يكاد الأ يسمع:

— التنمية المستدامة التنمية المستدامة؟!

شيخون:

— إيه يا ابني روحت فين؟

عبدون:

— لا... أصل كلمة "تنمية مستدامة" دي فكرتني بالبابا، كان دائماً يقول الكلمة دي، حتى الواد سعيد وهو البابا خارج آخر مرة قال نكته عليها...

ده كده البابا كان مدور الدار زي ما أنا بعمل برضه!

ضحك شيخون:

— عليك نور يا بطل! بس عايزك متجلبش سيره الواد سعيد ده تاني، لا هو ولا أي حاجة من الأشكال دي.

كان عبدون يحدث نفسه بصوت خفي:

— هو إزاي شيخون فاكّر اسم سعيد في كل المشاغل اللي عنده دي؟ ده كان بيتلغبط في نطق اسمي لحد بعد أسبوع من مكالمات كل يوم!

الواد سعيد ده شكله مهم ومعروف وأنا ماعرفش ولا إيه؟!

قاطع شيخون أفكاره المتسارعة:

— إيه يا ابني، هو انتهاءفضل كل شوية تسرح مني كده؟
عموماً حقك يا عم، ما أنت صاحب "ملكة الصحراء"!

عبدون:

— طب يلا بقي قولي، هانعمل كدة أمتي؟

شيخون:

— لأ... اهدي كده، الحاجات دي بتاخذ وقت!

عبدون:

— يا نهار اسود! ده أنا كده في مصيبة.. الأنابيب بتفضي خلاص، هأكل العيال الأكل من غير طبخ ولا أول ليهم حطب يطبخوا عليه ويقولوا عليا فاشل والدار بترجع لورا؟!!

شيخون:

— وهو صاحبك برضو يسبب شكلك يبقى كده؟

متقلّش زمان الشباب اللي معايا بره نزلوا حمولة عربية تانية كلها غاز وجاز وكل أنواع الطاقة اللي تحلم بيها..

دي عندنا منها كتير أكثر من المياه، والحمولة اللي بره هاتكفيكم
لحد بس ما تظبط دنيته!

عبدون باستغراب:

— طب اما الغاز والجاز عنكم أكثر من المياه أشتري من ولاد
العم ليه ما اشتري من عندكم علي طول؟

شيخون:

ياريت ينفع والله! ده كده هاتبقى تكلفة النقل أكثر من السعر نفسه،

إنما ولاد عمك الباب في الباب، ومهما باعوا غالي هما أرخص
لك.. ده غير إنه كويس تشتري منهم وتعمل علاقة معاهم، الناس
دي دايماً في ضهر أصدقائهم!

استكمل شيخون حديثه بعد أن أخرج من حقيبته رزم نقود كثيرة:

— خد خليفهم معاك عشان تعرف تتمنظر وتتعامل، ومتقولش
حتى لسعداوي حاجة عنهم... دول من أخ لأخوه مش من شيخون
للأيتام! يلا بقي أسيبك وأمشى، عشان لسه عندي جولة كبيرة.

عبدون بحماس:

— طب لازم أوصلك بنفسي!

شيخون:

— يلا بينا...

واستكمل شيخون حديثه وهو في طريق الخروج:

— مفكرتش يا عبدون تغير الأوضة المقبضة اللي أنت قاعد
فيها دي؟ دي حتى مش منطقية لواحد هايركب "ملكة الصحراء"!

ضحك عبدون بإحراج:

— منين يا كبير؟ ما أنت عارف اللي فيها!

شيخون:

— يا مسهل... يا مسهل... كله على الله ومتقلقش كل الحاجات
دي هاتتظبط!

دخل شيخون سيارته وانطلق، ودخل عبدون فوراً على إخوته
صارخاً فرحاً ومنتشياً:

شوفتوا بقي لما قتلناكم تنصفوا الدار إمبرح.. كان عندي حق
إزاي؟!

احنا النهاردة جبنا جون بجد..

وبكرة تشوفوا الدار! ويلا.. النهاردة لعب وهزار وغنا!

ثم نظر ناحية البدروم:

— حتى اللي في البدروم... ينزلهم أكل زيادة... وبكرة بنفسى
هانزل البدروم أطمئن عليهم، دول أخواتنا برضوا مهما كانت
دماغهم بايظه!

واستمر الجميع في اللعب والغناء طوال اليوم، عبدون جنب فائن،
وسعيد جنب زيدان

ومضبوط في النص "الكلب الحيران"، حتى تعب الجميع وتسلل
الواحد تلو الآخر ليستريح من لعبه هارباً إلى النوم المفقود.

الفصل التاسع:

الثورة كخ

أنتهت ليلة الاحتفال العظيم، وانقضت معها هيصة الفرح المدوي التي استمرت حتى الفجر؛ استقر الطعام في البطون، ونام أيتام «دار الأمل» نومة ثقيلة لم يعرفوها منذ غياب البابا.

حتى سكان البدروم نالهم من نفحات البهجة بعض الطعام بأوامر عبدون، الذي استشعر في تلك الليلة أنه بلغ سدرة المنتهى من القوة والنفوذ.

الجميع يحتفل الجميع مبتهج لم يكن عبدون سعيداً بتوفر الطعام وأنابيب الغاز فقط كباقي الأيتام، ولكنه مبتهج لنجاحه في تأمين طعام إخوته لفترة أكبر نسبياً من سابقتها

نظر عبدون في عيونهم وهم يرقصون حوله، احتضنهم جميعاً
كأخ بحرارة صادقة، ووقف ليصرخ بصوت هز الجدران:

تحيا دار الأمل!... تحيا دار الأمل!... تحيا دار الأمل!

ومع تسلل النور الخافت، هبط النعاس على الصغار واحداً تلو
الآخر؛ ثقلت أجفانهم بفعل البطون الممتلئة، وسكنت الدار في
ثبات عميق.

غابت الضوضاء وانطفأت فرحة الأيتام في الساحة، لكنها أنتقلت
إلى عقل عبدون الباطن، لتبدأ في أحلامه الاحتفالات الحقيقية.

عبدون في منامه، يترجل من سيارة فاخرة ذات نوافذ معتمة،
تهادت على أرضية مُهدت ورُصعت بالمجوهرات، تحيط بها
عشرات من سيارات الحراسة الضخمة.

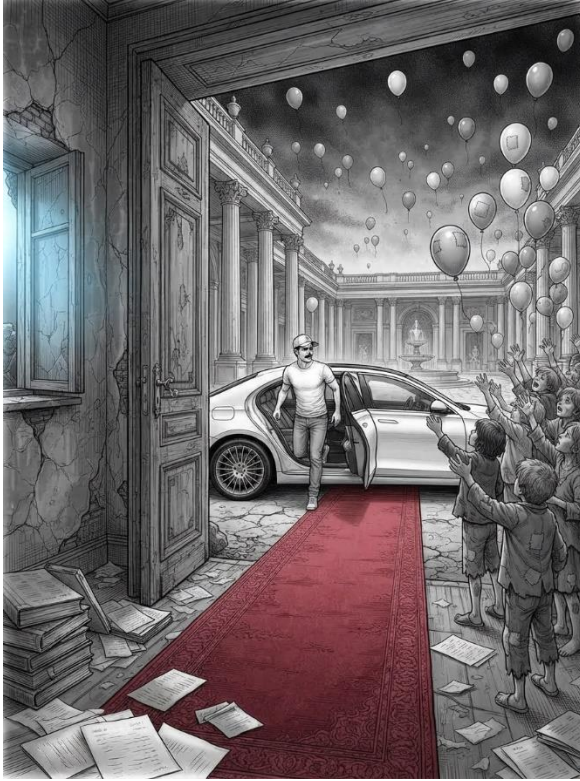
وبمجرد أن توقفت السيارة، قفز الحراس الشخصيون بأجسادهم العريضة ليفتحوا باب «البابا عبدون».

امسك بيد اميرته فاتن الجالسة إلى جواره في السيارة الفارهة؛
ترجّل بين رجاله بخطوات وثيقة، وعلى الجانبين كانت آلاف
الأطفال يلتفون يميناً ويساراً، يلوحون بأيديهم ويهتفون:

عبدون!...عبدون!... يعيش عبدون!... يعيش... يعيش... يعيش!

أشار عبدون لحراسه بإيماءة كبرياء، فاندفعوا نحو إحدى
الشاحنات واستخرجوا مئات البالونات الملونة الممتلئة بالهيليوم.
بادر الحراس بإلقائها عشوائياً على الجماهير العريضة، بينما
عبدون لا يزال يوزع التحيّات الملكية..

وقبل أن تطال أيدي الصغار الممدودة تلك البالونات، ارتفعت في
السماء بعيداً بفعل الهيليوم، فصاح الأطفال فرحاً بالهدايا التي كان
يمكن أن يحصلوا عليها، واستمروا في الهاتف الهستيري:
«عبدون!... عبدون!... عبدون!».



خطا عبدون نحو غرفة البابا، فأشار إليه مساعده «زيدان» برأس
ينحني إجلالاً نحو سجاد أحمر فاخر، يربط بين الغرفة القديمة
وبناء حديث بألوان زاهية يشبه قصرًا منيفاً شُيّد في قلب بهو
الدار.

تحرك عبدون فوق السجاد بخطوات متقطعة، وكل شيء حوله
ينطق بالثراء.

جلس على كرسي البابا الفخم، وأمسك ريموت التلفاز ذا الشاشة
العلاقة على نشرة أخبار عالمية؛ ظهرت المذبة بوقار وتقاطيع
جادة وهي تقول:

«... وكانت تجربة عبدون العظيمة قد غيرت ملامح الإقليم
بالكامل وأعدت صياغة الاستقرار...».

وقبل أن تكمل الخبر، ضغط الزر لينتقل إلى قناة أخرى تعرض
مسلسلاً درامياً، وتحتة شريط إخباري:

[عاجل: عودة العظيم عبدون إلى دار الأمل بعد جولة تاريخية
أنقذ خلالها ٧ دور أيتام من الانهيار وشبح الفوضى].

ضغط الزر مرة ثالثة،

ليرى مراسلاً في الشارع يسأل أحد المارة عشوائياً:

«قولنا إيه سر حيك لعبدون؟»، وقبل أن ينطق الرجل بكلمة...

تلاشى القصر والمواكب وابتلعت الشاشة العريضة ظلمة خاطفة،
وانشق المنام على صوت خبط متواصل على الباب، وصوت
ينادي من الخارج:

— اصحى يا عبدون!... الضهر أذن وكلنا نمنا كثير أوي!

فتح عبدون عينيه ببطء، ليجد نفسه جالساً على كرسي البابا العتيق، صاحب الجلد المتشقق الذي يخرج القش من جوانبه؛ ففي تلك الغرفة الراتبة التي ينبعث منها عبق الرطوبة والعفن، والتي لم يعرف فيها طعم النوم المريح منذ دخلها حاكماً للدار.

إلا في هذا الحلم الجميل شعر بنغزة في صدره؛ نظر إلى المكان فيجد العفن، وينظر للأرض فيجد بواقي الطعام.

تنفس بصوت عالٍ وهو يمسح وجهه بكفيه، وقال بصوت متثائب: — ادخل يا ابني... ادخل.

انفتح الباب ودخل عدد من الأطفال، في مقدمتهم اللمض الصغير مضبوط، وهو يتخفى خلف الباب ممسكاً بين أصابعه الصغيرة مجسم لعبة زرقاء مكسورة قد غنمها من زينة أمس، وإلى جواره بنوتة صغيرة جميلة تقف بفضول الصغار.

تقدمت الصغيرة خطوات، وقالت ببراءة:

— يا عبدون، إحنا طلعلنا نلعب في الجنية، وزيدان الرخم ده قالنا مفيش لعب لحد ما عبدون يصحى ويقول النهاردة نلعب ولا ننظف زي امبارح... هو فيه ضيوف تاني النهاردة؟ إحنا عايزين نلعب بقي!

تردد في أذن عبدون صوت، عن ضرورة تمييز أتباعه المقربين وتنشيت أقدام رجاله فوق بقية الأيتام.

ونظر عبدون للصغيرة بنبرة أبوة مصطنعة:

— أولاً يا لمضة أنتي مسميش عبدون... اسمي «البابا»!

ثم التفت إلى مضبوط وهو يبتسم ابتسامة باهتة:

— ما تقولها يا عم... هو إحنا مش اتفقنا قبل كده؟

ثم عاد يوجه كلامه للبنات:

— ثانياً... الطفل المحترم يسمع كلام الأكبر منه. (ووضع يده على كتف زيدان):

— وزيدان ده أكبركم، وببساعدني في إدارة الدار... يعني نسمع كلامه!

وأمسك بيد الصغيرة برفق لم يؤلمها، مستدركاً:

— يعني عيب نقول عليه رخم.

ثم تنفس بعمق وقال:

— ثالثاً... يلا اعتذروا لزيدان واطلعوا العبوا، النهاردة سماح ومفيش شغل.

رابعاً... يلا بقي عشان عندي شغل كتير... بس استنى أنتيا زيدان، عايزك.

وأثناء اندفاع الصغار نحو الباب للخروج، نادى عبدون بصوت عالٍ:

— يا مظيفوط!... قول لفاتن تعملي فطار، وخلوا أخواتكم البنات يأكلوكم!

التفت مضبوط عند العتبة، وربط يديه أمام صدره بجرأة طفل لم
تستوعب بعد موازين القوى الجديدة، وضغط على مجسم اللعبة
المكسورة في يده وقال بلهجة قاطعة:

— لا... مش قايل لحد حاجة! أنت مش قولت النهاردة لعب؟

أنا أصغر طفل في الدار، والمفروض أنا أكثر واحد يلعب، مش
أفضل اللف على العيال أقول لفلان وعلان أوامرك!

تغيرت ملامح عبدون في لحظة خاطفة، واختفت ابتسامته الأبوية
ليحل محلها احمرار مكتوم وشراسة فجائية.

قام من مجلسه بخطوات ثقيلة، واقترب من الطفل مضبوط حتى
حجب عنه ضوء الشباك، ومد يده ببطء مرعب وأنتزع اللعبة من
يده الصغير، وبحركة واحدة حاسمة من إبهامه كسر اللعبة أمام
عينيه ورماها تحت قدميه.

نفخ صدره وصرخ بصوت كالرعد:

— هو ده اللي أنا قولته؟! ... نسمع الكلام!! أنت معاقب يا
مضبوط! ... ومش بس مفيش لعب... أنت كمان هتنتيل تنزل
البدروم!



كان صوت الزعيق والنهير القاسي كفيلاً بجذب انتباه الأطفال
في الممر والجنينة.

تجمع العشرات عند الباب، وسمع الجميع أمر «البابا الجديد»
بسجن الطفل المدلل مضبوط.

تقدمت فتاة في بداية المراهقة، وقالت بصدمة ووجه شاحب:

— إيه اللي بتقوله ده يا عبدون؟!... أنت عايز تحبس عيل
صغير؟!

التفت عبدون إليها، وصاح بقسوة:

— أحبسه!... وأحبسك!... وأحبس أي حد يفكر يعارض
كلامي!

تقدم مراقب آخر خطوة للأمام قائلاً باستنكار وسخرية خافتة:

— إيه اللي بتعمله ده؟ ... مين اداك الحق في إنك تحبسه؟

رد عبدون بنبرة حاسمة:

— أنتوا.... ايوة أنتوا!... الدار فوّضتني أحميها من أي خطر

محتمل! ولا نسيت؟

رد المراقب بصوت خافت وهو يتراجع للخلف:

— والعيال الصغيرة دي خطر محتمل يا عبدون؟!!

عبدون بصوت هادئ وبارد:

— لا... مش هما بس... أنت كمان خطر!

هاج عبدون فجأة في وجه زيدان:

— نفذ التعليمات يا زيدان!... الثلاثة ع البدروم، والكل بره!

وانقض زيدان ورجاله، أمسكوا بمضبوط الذي بدأ يبكي بغير فهم، وسحبوا الفتاة والمراهق وسط زهول الجميع، ليقودوهم إلى غياهب البدروم.

خرج الأطفال من الغرفة في حالة من الصدمة والرغبة والجمود، وكأن قرارات الدقائق الأخيرة قد سحقت كل ما تبقى من غناء البارحة وفرحة الشبع.

ولم يتبقَ في الغرفة سوى «سعيد»، كان يقف صامتاً، يراقب المشهد.

وقبل أن يخرج سعيد عبدون بنظرة حادة، وبنبرة استعلاء:

— إيه يا سعيد؟... يعني مش طالعك صوت! عاجباك قراراتي طبعاً... أنت عاقل ومتربي وتفهم في الأصول.

سعيد بثبات، وابتسامة تهكمية خفيفة:

— لأ الحقيقة... أنا محوش صوتي لمكان تانى ها يبقى مناسب أكثر!

عبدون:

— مممم يعني إيه بقي؟

سعيد ببرود:

— مش يعني حاجة.

عبدون بحدة:

— مفيش حاجة اسمها كده!... قلت كلمة يبقى توضحها!

سعيد وهو يستند بظهره إلى الإطار الخشبي للباب:

— ده لما أكون قايلها بالروسي!... أنت مش أكبر مني، وقادر
تحكم وتفسر كل حاجة لوحذك.

أقترب عبدون منه خطوات، وبنبرة تهديد صريحة:

— يا سعيد... خليك عارف إني مش هاصبر عليك كتير!

سعيد بثبات:

— طيب سيبي بقي استغل فترة صبرك دي واستمتع بيها!...

أو أقولك على حل سهل؟ أول ما زيدان العبقري بتاعك يطلع،
قولّه ينزلني البدروم معاهم... ولما الأيتام يسألوك حبسته سعيد
ليه، قولهم: عشان كان ساكت!

ثم تحرك سعيد بهدوء، وقبل أن يخطو للخارج، نادى عليه عبدون
بصوت مكتوم:

— بقولك إيه يا سعيد... هو أنت تعرف شيخون منين؟

أدار سعيد وجهه ببطء، ونظر إلى عبدون بسخرية مريرة:

— أنا لا عارف لا شيخون، ولا شمعون، ولا سيحون... ولا
أي حد!

عبدون بجفاء:

— طب خد الباب في ضهرك!

سعيد بابتسامة ناعمة:

— أوامرك يا... يا... يا بابا!

خرج سعيد وجلس عبدون، وذهنه مشغول في العديد من الأسئلة؛

لماذا يكره شيخون هذا السعيد بالذات؟

وهل يمكن لهذا الكره الشديد أن ينبت بلا معرفة سابقة؟

كانت الأسئلة تتصارع في رأس «البابا الشاب»، بينما كانت
الأقدام الثقيلة تهبط السلم نحو البدروم.

في القاع المظلم، حيث تأكل الرطوبة الجدران ويختنق الهواء،
وصل زيدان ورجاله بالسجناء الثلاثة.

فُتحت الأبواب الحديدية؛ أودعت الفتاة المراهقة في سجن النساء
حيث سلطة «منى»، بينما أُدخل مطبوط وأخوه المراهق إلى
زنزانة الرجال حيث «بكر».

كان السجنان قد تحولاً إلى مملكتين متباينتين تماماً؛

في سجن النساء، كانت منى تجلس على طرف الدكة الخشبية،
ورغم القذارة المحيطة بها كانت تحاول الحفاظ على آخر ما تبقى
من كبرياء جمالها وتأنقها، مأخوذة بكبرياء الجسد والهوس
بالنظافة.

كانت تمسك بعود خشبي محروق من بقايا شمعة سابقة، وترسم
به خط كحل أسود على جفنها أمام انعكاس وجهها في قطعة
زجاج مكسورة، تُجمل انكسارها برسم الكبرياء.

وكانت قد اتخذت من «نوران» وصيفة خاصة تدير لها شؤون
مملكتها الصغيرة.

دخلت الفتاة المراهقة الزنزانة المظلمة وهي ترتجف، لم تتحرك
منى، واكتفت بإشارة كبرياء بعينيها لنوران كي تستقبل الوارد
الجديد.

ارتمت الفتاة في أحضان نوران وهي تبكي:

— يا نورا... واحشاني أوي! طمئني عليكم... إيه اللي يحصل
هنا؟

نوران تهمس:

— إحنا زي الفل... ادخلي بس سلمى على منى الأول وبعدين
نتكلم.

تقدمت الفتاة بخطوات خائفة لتسلم على منى، لكن رد فعل الأخيرة
كان غريباً ومتحفظاً.

كانت منى تفترش دكة، مستلقية كملكة إغريقية، رمقت الصغيرة
من أسفل قدميها حتى أعلى رأسها بنظرة فاحصة، ثم قالت بجفاء:

— أهلاً وسهلاً بالوارد... خديها يا نوران دلوقتي، قوليلها تقعد
فين وفهميها قواعد السجن.

أنا هنام شوية، وأما أصحي تبقي تحكيلنا مصيبة إيه عملتها جابتها
عندنا هنا.

أغمضت منى عينيها واستدارت، فبدأت البنات يهمسن بصوت
خافت للاطمئنان على أختهن التي انضمت خلف القضبان.

همست نوران:

— يا موزة طمنينا عليك... وبعدين إيه الجمال ده؟ أنتي احلوتي
كده امتى؟

المراهقة بضيق:

— هو فيه إيه يا نورا؟ بتتكلموا بصوت واطي ليه؟ ومنى
عاملتني وحش ليه؟ هو أنا عملت حاجة غلط؟

نوران مقاطعة بهمس سريع:

— لا يا بنتي، أنتي قمر والله... بس هو هنا فيه قواعد! ومنى
أقدم واحدة فينا، فهي اللي بتخط القواعد وهي المسؤولة عن
تنفيذها.

الفتاة بذهول:

— قواعد إيه بالظبط؟ أنا مش فاهمة حاجة!

نوران بجدية:

— هنفهمي كل حاجة مع الوقت... المهم دلوقتي تعرفي إن
الكبير هنا منى، وخلصتني وصيفتها، وكل حاجة هنا بتتحكم فيها
منى... ولو غضبت عليكِ هتبقى أيامك وأيامنا سودة!

الفتاة:

— طب وأعمل إيه؟

نوران:

— مفتاح السعادة في السجن هنا هو التعبير دائماً عن الاعجاب
بجمال منى.

اه صحيح، نسيت أقولك... فيه حاجتين بيضايقوها أوي:

أول حاجة إن حد يتكلم وهي نائمة فيز عجبها،

وتاني حاجة إن حد يعرف معلومة قبلها!

ف أنتي متدوريش تسألني على حاجة هنا، ولو حد دردش معاك
وقال معلومة واتفتح كلام قدامها... ولا كأنك تعرفي!

الفتاة باستنكار:

— يعني أنا المفروض طول ما هي نائمة أقعد قافلة بوقي، ولو
حد كلمني ماسمعش، وكل ما أشوفها أقولها الله أنتي جميلة؟!!

نوران:

— ده لو عايزة تعرفي تعيشي هنا!... بكرة تتعودي. بس سيبك أنت، خلىنا في المهم... أنتي اتحبستي ليه؟

الفتاة بكسرة:

— عشان اعترضت على سجن مطبوط!

شهقت نوران بصدمة وصرخت بغير شعور:

— إبييه؟!... حبسوا مطبوط؟!... ده عيل صغير!

أيقظت الصرخة العالية منى من نومها.

جلست منى على الدكة بغضب شديد، وصاحت:

— إيه اللي بيحصل هنا؟! أنتي يا نوران... ده أنا خليتك وصيفتي وركبتك على زمايلك وعلى أي حد يتسجن تاني، تخالفي قواعدي وأنتي اللي المفروض اللي تراقبي تنفيذها؟!!

نوران بدموع وارتباك:

— يا منى أنا مقدرتش أتحكم في نفسي... عبدون حبس العيل الصغير مضبوط!

منى ببرود شديد، دون أن يهتز لها جفن:

— اه طيب... أنا أعمل إيه دلوقتي؟ حاضر، لحظة واحدة.

اتجهت منى بخطوات نحو النظارة (الفتحة الحديدية في الباب)،
ونادت بصوت مرتفع لكي يسمعها سجن الرجال:

— معلش يا مضبوط!

ثم التفتت ونظرت لنوران بسخرية:

— أهو يا ستي... معلشته! مبسوبة دلوقتي؟...

أنا هكمل نومي، بس قبل ما أكمل نومي لازم تعرفي إنك غلطتي
٣ غلطات:

، اتكلمتي وأنا نايمة،
وسألتني وارد علينا عشان تعرفي معلومة قبلي،
واتكلمتي معايا أنا بصوت عالي!....

أنتي هتتعاقبي على كل غلطة بساعة عند الدورة (دورة المياه)...
تخلصي عقوبتك بقي وتصحيني عشان أشوف البلاوي اللي
بتتحدف علينا دي!

في الجانب الآخر، كان سجن الرجال تحت إدارة «بكر» يغلي
بطريقة مختلفة تماماً؛

كل شيء غير مرتب، القذارة في كل ركن، والسجناء يلتفون حول
بكر يستمعون إلى قصصه غير المنطقية.

كان بكر يمارس تمارين الضغط على الأرضية الأسمنتية الباردة
وعرقه يتصبب كأنه يستعد لمعركة مع طواحين الهواء،
وقد مزق جزءاً من ملءة سريره وربطها حول رأسه كراية
ثورة،

وكان يخطب فيهم مدعياً أنه كان البطل الخفي في أيام البابا، وأنه
هو من كان يدير الأمور في السر بينما البابا لا يفعل شيئاً،
وأن البابا أبلغه قبل رحيله إنه سيتأخر هذه المرة ووكله بإدارة
الدار، وأن هذا بالذات هو سبب انقلاب عبدون لسرقة الشرعية
منه!

انفتح باب الزنزانة فجأة، ودفع الحراس بالمراهق ومظبوط
للداخل.

لم يتحرك بكر لرؤية المراهق، ولكن بمجرد أن أطل رأس
مظبوط الصغير من خلفه، انخلع قلب بكر.

اندفع ونزل على ركبتيه واحتضن الطفل بدموع وبكاء حار.

حاول بكر منع الحراس من إغلاق الباب، فدفعه زيدان من الخلف
وهو يصرخ في أتباعه:

— اقفلوا الباب كويس!... زقوه جوة... زقوه جوة!

انطبق الباب الحديدي، فالتصق وجه بكر

بكر بصوت كالرعد:

— ليك يوم يا زيدان!... أنت وكل أعوان المجرم عبدون...
ليك يوم يا زيدان!

ثم رفع قبضته في الهواء، وبدأ يهتف بحنجرة مبحوحة:

عمر السجن ما غير فكرة!... عمر القهر ما آخر بكرة!...

يسقط عبدون... يسقط عبدون... يسقط عبدون!

أنتعشت روح التمرد في الزنزانة، فهتف السجناء خلفه بصوت
هز الأركان:

— يسقط عبدون!... يسقط عبدون!

وصل الصدى إلى سجن النساء، فاحتضنت منى أختها وعادت
لتصرخ من خلف الباب:

— إحنا معاك يا بكر!

فهتفت البنات:

— يسقط عبدون!... يسقط عبدون!

كان صدى صوت البدروم أشد وأقوى من أي مكبر صوت؛
انبعث من منافذ التهوية والأرضية ليجلجل في ساحة الدار فوق
الأرض.

سمع الجميع الهتاف ووقف الأيتام يتبادلون النظرات المذهولة.
خرج سعيد من سيارة البابا القديمة، وصعد فوق سقف السيارة:
أنتموا بتبصوا لبعض اهتفوا معاهم:

— يسقط عبدون!... يسقط عبدون!

هتف البعض خلف سعيد، وبفعل العدوى النفسية، شق الصوت
الساحة، وانخرطوا جميعاً في الهتاف الهستيري:

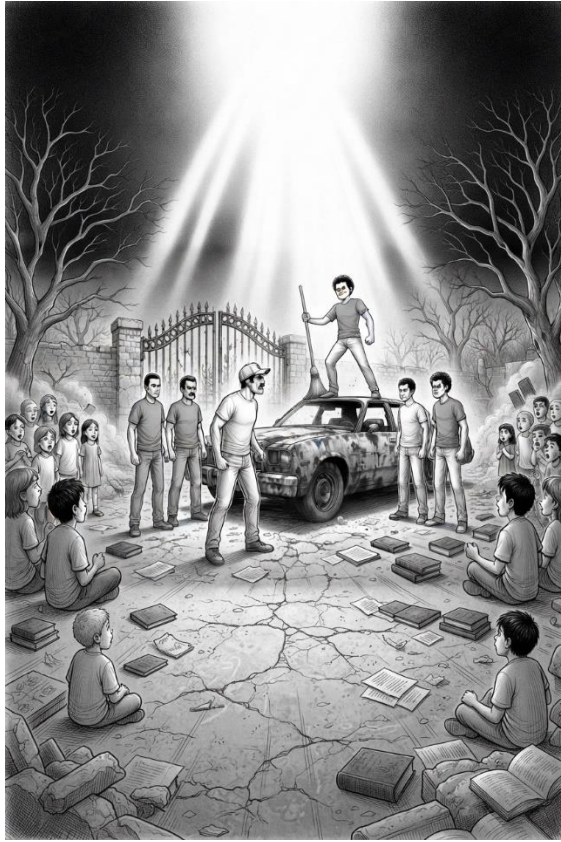
لم يكن هناك من لا يهتف سوى زيدان ورجاله المحيطين بعبدون.

اندفع عبدون غاضباً نحو الجنينة، ليجد الأيتام قد التفوا جميعاً
حول سعيد.

وقف سعيد هادئاً، في ثقة، بيده المقلشة وينظر لعبدون بنظرة
تحدي واستفزاز ومستفز.

تقدم عبدون ونظر في عينيه بحدة، فبادلته سعيد ذات النظرة الثابتة
مع رفع عصا المقشاة رفعه بسيطة لكنها معبرة.

ساد صمت مفاجئ بين الجميع، وتوقفت الهتافات؛ نظرات تحدٍ
صامتة بين الرجلين.



قطع سعيد الصمت بنبرة هادئة ورصينة:

— عبدون... أنا قولتلك قبل كدة أنا مش عايز منك، ولا من بكر، ولا من منى حاجة...

وقولتلك برضوا إني شايف إن مفيش فايده، وأهو أنا عايش صابر وساكت! إنما توصل إنك تحبس مضبوط؟!

مضبوط ده ابننا مش أخونا... مضبوط لسه متعلم الكلام السنة اللي فاتت يا عبدون!

ده غير كمان الطفل الغلبان اللي حبسته من يومين عشان كان عايز ضربة جزاء في ماتش كورة ونسيته في البدروم!

بدأت الهمهمات تتسلل بين الأطفال، لكن عبدون تنفس بثقل، وقرر استخدام خطابه البلاغي العاطفي لامتناس الفتنة.

وقف بثبات، وقال بصوت جهوري يملأ الساحة:

— سعيد!... متزايدش عليا يا سعيد! أنا أكبر منك، وعشت في
الدار دي أكثر منك، وعايز مصلحتها أكثر منك... والأهم إني أنا
الوحيد اللي عارف مصلحة الدار فين!

ثم رفع يديه بحركة بتمثيلية متقنة وهو ينظر للأطفال:

— أنا محبستش مضبوط يا سعيد!... أيوة!... محبستش مضبوط!

أنا هنا «البابا»... وأي أب من حقه يربي ابنه، خصوصاً لو كان
آخر العنقود السكر المعقود!

ثم نظر للجميع وقال بصوت يقطره الحنان المصطنع:

— إزاي أبقي بلعب معاه إمبراح بالليل، والصبح أحبسه يعني؟!
أكيد لأ طبعاً... أنا هاخرجه!

كل الحكاية إنه غلط، وأنتم عارفين إن أنا نازل النهاردة البدروم
أظمن على أخواتنا تحت، وقولت لكم الكلام ده امبارح...

وأنا بقي كنت ناوي وأنا طالع أجيب مضبوط، بس يكون عرف
واتعلم عشان ميغلطش تاني ويتربى!

ثم صرخ بنبرة مظلومية:

— إيه؟! ... أنتم عايزني أعمل؟ ...

أخلي كل حاجة ساوية يعني؟!

لأ... لو كده يبقى بلاها حدوتة البابا دي!

ما هو أنا مش هسيبها تغرق وأنا بحكمها...

العيال الصغيرة دي لم تجد من يحنو عليهم... وأنا بحنو عليكم
والله!... حتى لو بالعقاب... عشان ده أصلا مسموش عقاب، اسمه
تربية!

انبهر أحد رجال زيدان بهذا الخطاب المتماسك، وبدون سيطرة على نفسه بدأ بالتصفيق، فتبعه بعض الصغار من الأيتام في ثوانٍ معدودة.

استغل زيدان الذكي هذه اللحظة، وصاح بأعلى صوته:

— يعيش عبدون!

فردد الجميع خلفه بحماس:

— يعيش عبدون!... يعيش عبدون!

تسلل عبدون بذكاء بين الهتيفة حتى وصل في مواجهة سعيد.

ابتسم وبضحكة صفراء مصنعة، احتضن سعيد بحرارة أمام الجميع وهو يقول:

— أنا مطمئن على الولاد وأنت وسطهم ياسعيد، وواثق إنك بتحبهم وتحبني، وعلمت اللي عملته ده خوف على مضبوط... بس لازم تعرف ان أنا بحب مضبوط أكثر منك!

كان عبدون يحتضنه بقوة، بينما وقف سعيد بجمود كامل داخل
الحضن، لا يظهر رفضاً ولا يتجأوب بالرضا.

كان صوت الهاتف يتصاعد في الساحة: «يعيش عبدون!»، حتى
وصل متأخراً إلى مسامع السجناء في البدروم.

كانت نوران والبنات يهتفن «يسقط عبدون»، حتى رفعت منى
قبضتها في الهواء وأسكتت الجميع.

أشارت منى بإصبعها إلى أذنها وقالت:

— اسمعوا!

وما إن أدركت البنات أن الهاتف فوق الأرض قد تحول إلى
«يعيش عبدون»، حتى ساد الذهول والصمت القاتل.

قالت منى بصوت يائس ومتهالك:

— طيبيب!... يلا بقي كل واحدة في مكانها... وأنتيا نورا يا
حبيبتي متنسيش عقوبتك، يلا ع الدورة!

أما في زنزانة بكر، فقد أنتابه ذات الشعور البشع الذي شعر به
ليلته الأولى في السجن؛ نفس الهتاف، نفس الخذلان، ونفس
المهانة فتجددت مشاعر الكره والبغض لكل سكان أيتام الدار.

صرخ بكر بصوت يمزقه القهر:

— مش هيعيش عبدون!... يعيش بكرون!... يعيش البابا!...
يعيش بكرون!

ثم التفت لرفاق الزنزانة وصرخ فيهم بغل ارهب الجميع
خصوصا الصغير مضبوط:

— اهتفوا!!!... يعيش بكرون!... إيه؟ مابتعرفوش تهتفوا غير
لعبدون!؟

أنتم السبب قبل كده... هتفتوا وأنا بتسجن، وأديكوا معايا!...

وبكرة اللي بيهتفوا فوق دلوقتى يجوا هنا ويهتفوا زيكم!...

يعيش بكرون... يعيش بكرون...

وظل يرددّها بصوت ينخفض تدريجياً، حتى انهار على الأرض
وسكت تماماً، ليعود البدرّوم إلى صمته البشع.

بعد أن اطمأن عبدون لانتهاه أخطر تمرد واجهه منذ بداية حكمه
للدّار، عاد إلى غرفة البابا، وجلس خلف ونفث أنفاسه بقوة.

— يا زيدان.

دخل زيدان قائلاً:

— كل حاجة تحت السيطرة بعد كلمتك يا ريسنا!

عبدون بثقة:

— اقعد يا زيدان... عايز أدرّش معاك كأخوات.

زيدان:

— شرف ليا يا ريس.

عبدون بتأمل:

— إيه رأيك في اللي حصل بره ده؟

زيدان بسخرية:

— أنا شايف شوية عيال!... وأنا بحسبك كنت هتسيبهم يتسلوا ويلعبوا لعب العيال ده... هو أصلاً الهاتف ده كان هيفرق في إيه؟ مين هيسمعهم يعني؟

نظر عبدون للغرفة، وقال بنبرة هادئة:

— أتعرف معنى الكلمة؟

زيدان بجهل:

— لأ معرفش.

ابتسم عبدون ابتسامة خفيفة:

— ولا أنا!... بصراحة أنا سمعت زمان وأنا صغير مع البابا على الراديو حد كان بيقول: «أتعرف معنى الكلمة؟»... وبعدها كلام كتير لحد ماي في الآخر قال «شرف الله هو الكلمة»!

وقتھا استغربت أوي الكلمة دي وسألت البابا يعني إيه شرف الله؟

قالی: شرف الله هو الأمانة اللي في رقبتنا،

والدار دي أمانة يا زيدان... ومفيش خطر عليها غير الكلمة!

الولاد بيتجمعوا حولين سعيد بسبب هزاره وكلامه، وممكن فجأة
نلاقي الأطفال كلهم رافضين يسمعوا كلامنا لو سعيد قالهم
متسمعوش الكلام!... وقتھا إيه العمل؟

زيدان بجدية:

— طب نعمل إيه؟

عبدون بصرامة:

— القوة يا زيدان!... القوة! شد عليهم... خليهم خايفين
يتكلموا... خليهم شايفينا السند وعمود الخيمة... خليهم يقولوا إن
إحنا لو مش موجودين الدار دي هتقع!

زيدان بقسوة:

— هاتشوف يا ريس... هنضرب بإيد من حديد على دماغ اللي يعارض أوامرنا!

عبدون مقاطعاً بحكمة خبيثة:

— لا يا زيدان... إحنا عايزينهم ميوصلوش للمعارضة اصلاً! اضرب اللي يفكر حتى يعارض!...

مش عايزينهم يخافوا منّا، عايزينهم يخافوا يفكروا إنهم يعارضوا!

وده يحصل لما نخليهم مؤمنين إن الدار يعني عبدون... وعبدون يعني الدار!

ثمّ مدّ عبدون يده في درج المكتب المظلم، وأخرج رزمة من النقود (تلك التي أخذها خفية من شيخون):

— خد يا زيدان... الفلوس دي ليك لوحداك، محدش يعرف عنها حاجة...

وده مبلغ تاني خليه معاك، وزعه على رجالتك وفهمهم إن ده ليهم من غير سبب،

أو إنه ليهم عشان عبدون مبسوط منكم...

المهم خلي موضوع الفلوس ده بيني وبينكم، بدل ما الكل يجي يقول اشمعنى، وأنا أكيد مش هدي اللي كان بيهتف يسقط عبدون من شوية!

طب طب عبدون على كتف زيدان المنبر بالمبلغ، وقال:

— يلا يا زيدان... حط الفلوس في جيبك يا بطل، وجهز نفسك عشان ننزل نزور البدروم... وطبعاً مش محتاج أقولك تعمل إيه.

زيدان وهو يضع الأموال في جيبه بلهفة:

— سعادتك اديني ساعة وتبقى كل حاجة جاهزة!

خرج زيدان ليصيح في مساعديه بصوت مرتفع:

— عايز البدروم يبقى على عشرة على عشرة!... عايزه بيلمع،
يبقى أحسن حتى من فوق هنا!...

مش لازم البابا يشوف أي حاجة غلط، ولا عايزين تعليق واحد
منه...

وعايز أقولكم على حاجة: لو كل حاجة مشيت صح هعملكم مفاجأة
حلوة... بس شرفوني!

استغل عبدون ساعة الانتظار، ورفع سماعة الهاتف الأرضي.

— ألو...

من الجانب الآخر ببهجة سعداوي المتسلطة:

— يا عوبد!... ازيك؟ واحشني والله! عرفت من شيخون إنكم
عملتم اتفاقات عظيمة!

عبدون بابتسامة غرور:

— يا سعدأوي... مجرد مقابلة شيخون ده في حد ذاته عظمة!

سعدأوي بثقة:

— طبعاً طبعاً!... شيخون ده علاقاته أكبر مما تتخيل بكثير،

وأي ملف بيشتغل فيه بيحقق اللي هو عايزه.

عبدون:

— طب إيه؟ مش هتيجي تزورنا أنت كمان؟

سعدأوي:

— لا، أنا عندي فكرة أحسن... مش عايز تيجي أنت تزورني؟

عبدون بتردد:

— ياريت!... بس أنت عارف أنا عندي ظروف استثنائية

وبحأول أسيطر على الوضع عندي.

سعدأوي:

— شيخون قالي إنك مسيطر فعلاً، ورجالتك أقوياء وتقدر
تعتمد عليهم.

عبدون بفخر:

— طبعاً!... ومش أنا بس اللي أقدر أعتمد عليهم، دي المنطقة
والإقليم كله يقدر يعتمد عليهم!

وعايز أقولك حاجة... شيخون إداني مبلغ أوزعه على الرجالة
عشان يحسوا إنهم مميزين، وفعلاً إديت زيدان مبلغ وقولتله
ميقولش لحد، وكمان إديت مبلغ للرجالة.

سعدأوي بسرعة ونبرة تحذيرية:

— لا لا لا!... اللي أنت عملته ده غلط!

عبدون بدهشة:

— ليه بس؟ ده اقتراح شيخون!

سعدأوي بخبث:

— أنت فهمتني غلط... مقصدش ان توزيع الفلوس غلط، إنما أقصد ان الغلط إنك عملت ده في السر!...

أنت عارف إنه ممكن يبقى أكبر خطر عليك؟ هما رجالتك!

عبدون:

— إزاي؟

سعدأوي:

— يعني دول أقوياء زي ما أنت بتقول، وشيخون حكالي... فإيه بقى الضمانة إن محدش فيهم يطمع في الكرسي بتاعك؟ خصوصاً كبيرهم ده!...

عبدون:

— تقصد زيدان؟ لا لا متقلفش... أنا أكبر منه والكل بيعملي أنا حساب مش هو.

سعدأوي بسخرية:

— طب ما بكر كان أكبر منك، والكل كان بيعمله حساب!

عبدون بتلعثم:

— تصدق عندك حق!... طب شور عليا يا صديقي.

سعدأوي بلهجة الأستاذ:

— بص بقي... أهم حاجة تعملها مش إنك رجالتك وبس... لا!

أنت هتميزهم جداً، واديهم فلوس مرة واثنين وتلاتة... بس مش
في السر! إنما في العلن!...

لازم يظهروا قدام أخواتهم أنهم هما اللي واكلين حقهم، مش أي
حد ثاني!

باختصار: مينفعش يبقى ليهم شعبية! كل ما الأيتام كرهوهم، كل
ما بقيت أنت في أمان...

مش بس عشان الأيتام مش هيدعموهم، لا! كمان عشان هما هيبقوا شايفينك الضمانة لاستمرار نفوذهم!

فلو عبدون اختفى، العطايا مش هتبقى موجودة... وده مهم!

لكن الأهم: الشباب هيثوروا عليهم، فهستقتلوا عشان يحموك حتى لو وقفت أي عطايا لان حمايتك بقت حماية ليهم هما ولمصالحهم

وياسلام لو تخليهم هما اللي ياخدوا كام قرار حبس ظالم ولا حاجة تبقي خدت بصماتهم على أي سلاح جريمة ممكن حد ياخذه دليل عليك!

توقف سعدأوي ليلتقط أنفاسه، ثم أكمل:

— ثاني حاجة: متخلّش حد فيهم له سلطة كبيرة على الباقي!

يعني زيدان ده... لو لقيت شعبيته بتزيد، قوله محتاجك في مكان
أهم واخترعه أي منصب بامتيازات مادية أكبر، لكن يحرمه من
الشعبية وهات غيره... ولو بقي ليه شعبية نفس الكلام! وأفضل
دور الكراسي كده بين رجالتك!... أبويا بيسمي الحركة دي
«شلوت لفوق»!... بس...

وخليهم يظهرُوا قدام أخواتهم هما اللي قمعيين، وأنت اللي الحنون
اللي لما بتعرف إن حد متضايق بتروح لحد عنده تشوف إزاي
تسعه!

عبدون بذهول وإعجاب شديد:

— إيه الدماغ دي يا سعدأوي!... ما شاء الله أنت نموذج! أنا
فعلا مش عارف كنت هعمل إيه من غيركم! ربنا يعمر بيتك
ياشيخ

سمع عبدون طرقات على الباب، فقال:

— خليك معايا يا سعدأوي... ادخل!

دخل مراهق من رجال زيدان وقال باحترام:

— عبدون بابا... زيدان بيقول لسعادتك كل حاجة جاهزة، وهو واقف في أنتظار استقبال سعادتك على مدخل البديروم.

عبدون بوقار:

— طيب، روح أنت دلوقتي.

عاد لسماعة التليفون:

— معلش يا سعدأوي... معاك، كنا بنقول إيه؟

سعدأوي:

— الأول قولي... سمعت اللي بيكلمك بيقولك البديروم! أنا

عرفت إنك عملته سجن... فيه حاجة ولا إيه؟

عبدون بتبرير متلعثم:

— لا والله... أنا هعمل زيارة هناك عشان الأيتام يطمئنا إن
اللي تحت دول مش بيتعاقبوا، إنما بنعلمهم إزاي ينضبطوا
ونصلح دماغهم!

سعدأوي بضحكة خفيفة:

— برافو عليك!... أكيد مش محتاج أقولك: اللين ده فوق...
إنما تحت ادبح القطة!
العيال اللي في البدروم دي لو حسوا إن فيه قلبك بجنيه رحمة،
مش هيسموا عليك!

عبدون:

— متقلقش... أنا مش نازل حنية ولا حاجة، أنا عندي ترتيب
تاني خالص هايحبك بس خليه مفاجأة.

سعدأوي:

— طيب كويس...، خذلك بقي كام صورة وأنت بتحضنهم،
ولا حتى للأكل اللي بيتقدملهم... ودخل قبل الزيارة أحلى أكل
للصور!

عبدون بأسف:

— ياريت والله!... بس معندناش كاميرا هنا.

سعدأوي باستنكار:

— أنت بتهرج صح؟! يعني الدار دي كلها مفيش فيها تليفون
سمارت بكاميرا؟

عبدون:

— لا والله... البابا الله يرحمه كان دايماً يقول: التليفونات
هتطلعكم أغبية، مفيش أحسن من الألعاب بتاعة زمان!

سعدأوي متعجباً ساخراً:

— الله يرحمه!

عبدون:

— الرحمة تجوز على الحي والميت!

سعدأوي:

— طيب... أنت خلص زيارتك وممكن بعد بكرة أبعثلك عربية
تجيبك عندي، وخط حد مكانك تثق فيه... المهم أي حد غير
زيدان!

عشان ده لو عرف طعم كرسيك مش هيقوم من عليه تاني...
أقولك زيدان ده هاته معاك، قال يعني «وفد رسمي»!

عبدون بمزاح مفاجئ:

— بالمناسبة... البابا حكالنا عن حاكم في التاريخ اسمه
«قنصوة»، كان أما يسافر ياخذ قضاة المذاهب الأربعة معاه...
عشان هما بس اللي يعرفوا ينقلبوا عليه!

سعدأوي بضحكة مدوية:

— طب خد بالك بقي... عشان قنصوة الغوري اللي اتحالك
عنه ده مات مقتول، وحتى ملقوش ليه جثة!... هههههه!

عبدون بمزاح متوتر:

— أنت بتخوفني أجيلك يعني ولا إيه؟

سعدأوي:

— لا تعالي بس وملكش دعوة... لحد دلوقتي أنت في أمان!
وبقولك إيه... أما تيجي هاديك تليفون سمارت هدية فيه كاميرا
عالية جداً عشان تصور زيارتك بعد كده... وبينني وبينك كده،
أنا بحب لعبة اسمها «ببجي» هعلمها لك ونلعبها مع بعض على
طول!... يلا اقفل بقي عشان تلحق زيارتك.

أغلق عبدون الهاتف، وقف أمام المرأة وهذب ملابسه وجسده،
ثم خرج كالفاتحين. وجد رجال زيدان في أنتظاره، ونزل ببطء
نحو البدروم المظلم.

كان زيدان يقف عند المدخل منحني، يشرح لعبدون بأسلوب مسرحي كيف تم تنظيم المكان وتطهيره، بينما عبودون يستمع ويبيدي إعجابه، والجميع يعلم أن كل ما يقال مجرد كذب وتجميل.

أمر عبودون بفتح زنزانة النساء.

وقف أمام الباب يتأمل الفتيات في الداخل، وقال في سريرة نفسه:

— «مش حرام الجمال ده يتدفن هنا؟! ... يلا، هي دي شؤون الحكم، وحاجة بتشيل حاجة!».

قطع تأمله صوت منى من أقصى الزنزانة، وهي تصيح بجفاء للفتيات:

— اقعدي منك ليها!... إيه؟ بتحترموا مين وخايفين منه أوي كده؟ هيحصل فيكم إيه أكثر من هنا؟!

أشعل صوت منى حرارة في قلب عبدون، فتقدم خطوات وقال
بنبرة ناعمة:

— يا منى... ازيك؟

منى بحدة وغل:

— عايز إيه يا عبدون؟ جاي هنا ليه مش كفاية اللي أنت عملته
فيها؟

أشار عبدون للحراس بيده للابتعاد، ثم خفض صوته قائلاً:

— يا منى... كان غصب عني! ده لمصلحة الدار... أنت عارفة
أنا بحبك قد إيه، أنت أقرب أخت ليا في السن!

منى بدموع قاسية:

— أنا كمان كنت بحبك... بس عمري ما شوفتك أخ! منك الله
يا عبدون، ضيعت كل حاجة!

عبدون بإنكار:

— لا يا منى... أنا أنقذت أهم حاجة... أنقذت الدار، أنقذت
أخواتنا!

أشارت منى بنظرة ساخرة نحو السجينات:

— أخواتنا دول يا عبدون أنقذتهم؟! ولا تقصد مضبوط الطفل الصغير؟... لو هو ده الإنقاذ اللي تقصده تبقى مصيبة!

عبدون بثبات متصنع:

— يا منى... أنا كنت بفكر زيك كده، لكن أما قعدت على كرسي البابا عرفت إن الحكم ليه أحكامه، وإن ممكن أضحي بشوية مننا عشان الباقي يعيش!

منى بصراخ وانفعال:

— شوية؟!... أنت شايفنا شوية؟... روح يا عبدون روح!...
يلا امشي، وخليك عارف أنا لسه مش بكرهك... امشي يلا!

عبدون بصوت خافت:

— متقلقيش... هشوف وقت مناسب وأخرجك.

منى بتهكم وصوت مرتفع أسمع الجميع:

— تخرجني؟!... لا يا خويا، مش عايزة أخرج! أنا هنا ملكة
وبحكم مملكتي... إنما لو أنت اللي خرجتني، هبقى جارية في
مملكتك!

تغير وجه عبدون واشتعل غضباً وتوتراً. أشار لزيدان بقسوة:

— اقفل الزنزانة دي!... ومتفتتحش تاني غير بأوامري، حتى
لو بيموتوا!

نفذ زيدان الأمر فوراً، بينما توجه عبدون نحو سجن الرجال،
وأمر زيدان ورجاله أن يحاطوا به تحسباً لأي محاولة تعدي من
بكر.

فُتح باب الزنزانة، فخرج الصغير «مضبوط» مسرعاً وهو يبكي.
جلس عبدون على ركبتيه أمام مضبوط، وبمشاعر حب حقيقية
قال:

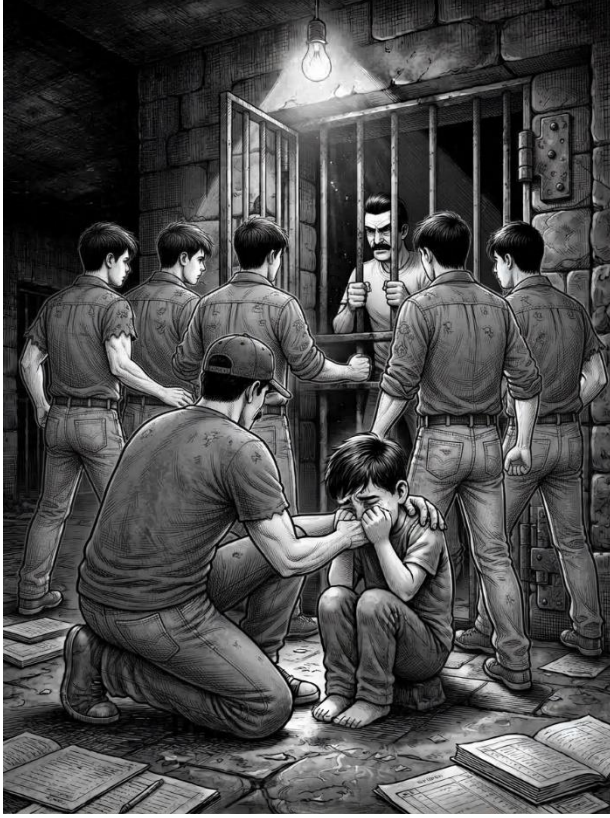
— فيه إيه يا مضبوط؟ خايف من إيه؟ متقلّش أنا هنا عشانك.

مضبوط وهو يشير للداخل:

— بكر بيزعق في الكل، وأنا خايف منه أوي!

لمعت عينا عبدون بلذّة الانتصار. احتضن الصغير وقال:

— متخافش... محدش يقدر يعملك حاجة!



وقبل أن يكمل كلماته، وقف بكر خلف قضبان الزنزانة، يفصل
بينه وبين عبدون أجساد حراس زيدان.

بكر بسخرية:

— إيه يا عبدون؟ بتعمل إيه هنا؟... إيه؟ خوفت من دقيقتين
هتاف؟ ده أنت خفيف أوي يا جده! امال يعني مش باين عليك
ليه؟

وقف عبدون ممسكاً بمضبوط:

— لا يا خفيف... أنا كده كده كنت نازل هنا النهاردة، وأعلنت
ده امبارح بأمانة السم الهاري الزيادة اللي نزلكم بالليل!
بكر:

— اه مش ده اكل الصدقة اللي جتلك برضوا سيبك من الكلام
عن الشحاتة وقولي نازل ليه بقي؟
عبدون بشرور:

— عشان أشوفك عايش ولا ها تموت امتي!

بكر بحدّة:

— ها موت بعد ما أعمل ثورة عليك وأجيبك مكاني هنا!

عبدون بضحكة استهزاء:

— ايوة ايوة... احلم، مش عيب برضه!

ثم وجه نظره للصغير مضبوط:

— إيه رأيك يا مضبوط في موضوع الثورة ده؟ تحب تفضل

هنا تساعد بكر وتفعد تعمل ثورة معاه... ولا الثورة كخ؟

نظر الطفل الصغير لبكر، ثم التفت لعبدون وقال ببراءة وخوف:

— لا... الثورة كخ!... وبكر وحش!

صاح عبدون بصوت عالٍ ومنتشٍ وهو ينظر لبكر:

— ممممم!... الثورة كخ وبكر وحش ويع كمان!... بكر عمل
إرهاب لطفل صغير!

دخلوا الإرهابي ده تاني واقفلوا الباب عليه عشان يعرف يقعد في
هدوء يخطط للكخ اللي عايز يعمله!...

هاهاهاها!... يلا يا مضبوط نطلع إحنا نلعب في الجنينة!

مضبوط:

— يلا بينا!

عبدون:

— حاف كده؟ لا لا لا... هنتصب عليا ولا إيه؟ بوسة وحضن
وتقولي: مش مغلط ثاني عشان متتعاقبش، ونطلع وإحنا بنهتف
سوا:

الثورة كخ وعبدون يع!...

الثورة كخ وعبدون يع!

احتضنه الصغير وقبله، ليعود عبدون ويمسك بيده ويخرج
كالفاتح المنتصر،
ويأمر زيدان ورجاله بالصعود خلفه إلى الساحة.

وبمجرد خروج عبدون من باب البدروم ومعه الصغير مضبوط،
هلل الأيتام الجائعون في الساحة:

— مضبوط!... مضبوط!

وقف عبدون بثقة أمام الجميع، ونفذ نصيحة سعدأوي بالحرف؛

قال بنبرة البطل المصلح:

— عرفتُم بقي إنني كنت بعلمه حاجة؟...

اسألوه أما نزل للمجرم بكر تحت عمل فيه إيه!

اسألوه مين اللي بيحبكم ومين اللي خايف عليكم، ومين اللي
بيكرهكم!

ثم نظر للصغير مضبوط بلطف:

— أو سيبوه يهتف هو بيكم... اهتف الهتاف اللي كنت بتهتفه
تحت يا مضبوط!

تردد مضبوط، وارتبك أمام نظرات الجميع، ثم هتف بصوت
خائف ومتردد:

— الثورة كخ... عبدون يع!

ساد صمت زهول بين الأيتام؛ لم يدرك أحد مغزى هذه المسرحية
ولا السلوك الغريب للصغير.

قاطع عبدون سكوتهم بصوت صارم:

— أنتم شكيتوا فيا وهاجمتوني!...

أنا داخل دلوقتي المكتب أسعى على مصالحكم، وخلوا أصغركم
مضبوط يحكيلكم اللي حصل معاه...

وصحيح: أنا إدبت زيدان مكافأة كبيرة وإدبته يوزع ع الرجالة
مكافآت...

وأشار بيده إلى حراس زيدان المتأهبين:

— وده مش عشان حاجة، غير إنهم فعلاً طلّعوا هما بس اللي
خافين ع الدار، ومنجروش ورا الإشاعات وكلام أهل الشر
وهتفوا ضدي!

ونظر في عين سعيد بتحدٍ صريح، ثم قال لمضطرب:

— يلا يا حبيبي... العب براحتك!

اندفع مضطرب وارتدى فجأة في أحضان «فاتن» الجميلة، وغطس رأسه في ثيابها دافئة الحنان.

رفعت فاتن عينيها المرتجفتين ونظرت لعبدون؛ لم تكن عيناها تحمل إعجاباً، بل كانت نظرة اشمئزاز صامت وحسرة مبلة بالخوف.

لكن عبود.. في عقله المريض والممتلئ بالبارانويا والغرور، فسر خطأ كعادته تلك النظرة وتلك اللمعة في عينيها بشكل آخر تماماً.



غاب عبدون في خيالاته للحظات خاطفة، وهو يتأمل مشهد جسد
فاتن وهي تحتضن الصغير، وهمس في سريره:

«ياريتني كنت مكانك يا مضبوط... مسيري في يوم أخذ أنا
الحضن ده! وأهي ابتدت تعجب بيا وبسلطتي».

ثم التفت مسرعاً للحراس:

— يلا ورايا!

دخل غرفة البابا وخلفه زيدان، الذي قال بخشوع وارتباك:

— هو مش حضرتك قولتلي مقولش لحد على موضوع
الفلوس؟

توتر عبدون لحظة، ثم رد بكبرياء متصنع:

— كنت بختبرك يا زيدان!... هو إحنا بنعمل حاجة غلط؟ ده
حقكم، أنتم اللي بتحموا الدار!

زيدان:

— اللي تشوفه هو الصح.

عبدون بتعب:

— طب يلا بقي، عشان النهاردة أطول يوم عدا عليا... روح
اطمن إن الكل اتعشى، ومتنزلش أكل لسجن الرجالة النهاردة،
خليهم يتربوا! واقفل النور وأنت خارج... أنا همدد هنا ع الكنبه.

خرج زيدان وأغلق الباب خلفه.

مدد عبدون جسده على الأريكة الجلدية العتيقة، وخلد إلى النوم
سريعاً وهو متعجل لمواصلة حلمه الجميل؛ حيث يركب «ملكة
الصحراء»، وتتنظر إليه فاتن من بعيد بعيون ملؤها الإعجاب
والافتتان!

الفصل العاشر:

أحلام

في صباح اليوم التالي، لم يستيقظ عبدون -ككل صباح- على أصوات لعب الصغار؛ كان المكان هادئاً على غير العادة.

نظر عبدون من شباك غرفته ليجد الجميع في مكانه؛ الأطفال في جنيّة الدار لكنهم لا يلعبون، وسعيد يفترش كنبه عربة البابا القديمة، مخرجاً قدمه من الشباك يداعب بها الرياح.

لا أحد من الأيتام، صغاراً كانوا أو مراهقين، يعلم أين اختفى الضحك، وأين ذهب مرح الأطفال.

خرج عبدون من غرفة البابا ليجد زيدان ورجاله منعزلين عن إخوتهم في الجنيّة.

عبدون:

— يا زيدان، محدش صحاني بدري ليه؟

زيدان:

— ياريس، سعادتك ما قلتش لي نصحيك إمتى، وكمان
سعادتك كنت نايم تعبان، فكلنا خفنا ندخل نزعجك.

عبدون:

— خوفتوا؟! طيب... وإنت اللي قلت للولاد بره ميطلعوش
صوت؟

زيدان:

— لا يا ريس، هما بقوا كده لوحدهم.

عبدون:

— طب خلي حد يجيبلي قهوة، وتعالى، عايزك ضروري.
دخل عبدون غرفة البابا مرة أخرى، يقول في نفسه:

— امال العيال دي هادية وساكتة ليه؟... عموماً كويس
يارب، يفضلوا كده على الأقل لحد ما أخلص زيارة سعدأوي
وأرجع.

عاد زيدان مسرعاً:

— ياريس، في عربيات كثير بره على باب الدار، ومعاها
حراسات، وبيقولوا عايزينك.

عبدون:

— ما هو أنا كنت عايزك عشان كده، إنت والرجالة
تستقبلوهم بسرعة استقبال محترم، ويقعدوا يشربوا حاجة في
غرفة الضيوف.

يا زيدان، بعد ما تستقبلهم، تستعجل القهوة وتيجي بنفسك بسرعة
يا زيدان، بسرعة.

زيدان:

— حاضر، بس...

عبدون مقاطعاً:

— هو إنت لسه هاتبسبس؟! بسرعة، اعمل اللي قولتلك عليه
حالا، وأي حاجة تانية تتأجل، نفذ يا زيدان من غير مناقشة.

يخرج زيدان مسرعاً:

— حاضر، حاضر.

عاد زيدان بيد ترتعش:

— القهوة يا فندم، والضيوف في الصالون، سعادتك
هاتستقبلهم؟ نجيب ليهم المشروبات هناك، ولا هاتقابلهم هنا؟

عبدون:

— لا هنا ولا هناك يا زيدان، أنا وانت هانخرج معاهم.

زيدان -بعد أن افترشت الابتسامة وجهه-:

— نروح فين سعادتك؟ يعني أنا هاركب العربية اللي بره دي؟

عبدون:

— أبوة، هاتركبها وتتفسح كمان، هو إنت قليل؟ إنت دراع عبدون اليمين يا زيدان... بس المشكلة دلوقتي مين يبقى مكانا هنا.

زيدان:

— سعيد أكبر واحد، والكل بيحبه، وهيسمع كلامه.

عبدون:

— يارب ارحمني من الأغبياء اللي حواليا... يا زيدان يا حبيبي، إحنا عايزين حد يحمي الدار دي من سعيد نفسه!

إنت عارف لو خرجنا إحنا الاتنين وسيبناها لسعيد بالذات يوم واحد، هيحصل إيه؟ مش هنعرف نرجّعها تاني.

شوف مين أخلص رجالتك ليا، حتى لو مش أقواهم، وياريت لو
يكون مبيحبش سعيد، وادخله ليا حالاً.

يخرج زيدان ويستدعي أهم رجاله "عناني"، ويصطحبه لغرفة
عبدون، ليشير عبدون لزيدان بالخروج.

عبدون:

— اقعد يا عناني، عايزك في مهمة عظيمة، اخترتك ليها
رغم معارضة زيدان.

عناني:

— اللي تكلفني بيه سيف على رقبتني ياريس.

عبدون:

— أنا خارج النهاردة في زيارة رسمية برة الدار، ممكن
تاخذ يومين تقريباً، والزيارة دي هتغير مستقبل الدار
ومستقبل إخوتنا الغلبة اللي بره دول.

وأنا بصراحة كنت نأوي أخلي زيدان هو اللي يدير الدار في
غيابي، بس شفت في عينه فرحة إنه عايز يقعد على الكرسي ده
-وأشار لكرسي البابا الذي يجلس عليه-.

زيدان يا عناني مش فاهم إن الكرسي ده مبيجيش غير وجع
الدماع، ولو سييته هيفرح بالكرسي ويفضل يشخط وينطر في
إخوتنا، ومش هياخد باله منهم ولا من الدار.

وأنا بصراحة متابعك من بدري ومعجب بيك، وشايفك أجدع شاب
هنا، فقررت آخذ زيدان معايا، وإنت اللي تاخذ باله من مصالح
إخواتك. بس توعدي إنك تاخذ بالك منهم أكثر من نفسك.

عناني:

— معاليك، الدار فوق دماغي وفي عنيا، تروح وترجع
بالسلامة يارب.

عبدون:

— بس في حاجة مهمة أنا خايف عليك منها خايف من
رخامة زيدان، مش هقوله أي حاجة قلناها سوا دلوقتي؛
الكلام اللي يتقال بينا يفضل بينا... ومش هوصّيك تاني على
الدار.

وصحيح، عشان منتساش حاجة: باب البدروم ميتفتحش وأنا مش
هنا غير لسببين: أولاً لو حد جديد هيشرف جوه، وثانياً الأكل
يدخل للبهوات اللي تحت.

عناني:

— هترجع بالسلامة سعادتك، وتدّيني مكافأة أما تشوف كل
حاجة زي الساعة... وأنا مش عايز غير رضاك عليا
ياريس.

عبدون ضاحكاً:

— ساعة إيه يا نصاب، دي عطلانة من قبل ما نتولد،
ههههه. ومكافأتك مش الرضا بس، إنت عارف البابا إيده

سخية على رجالته المخلصين اللي زيك. يالا نادي على
زيدان وتعالّ عشان تتولى مهامك.

خارج السور، كانت سيارات سعدأوي تقف كأنها كهف معدني
أملس؛ زجاج معتم يعكس صورة الصحراء التي تحاصر دار
الأمل وأيتامها، وتنتظر البابا عبدون.

وخرج عبدون يرافقه حراس سعدأوي، ينظر الصغار يمينه
ويساره إليه بدهشة كبيرة؛ هذا المشهد غير مألوف، ولا حتى في
عهد البابا الراحل.

وقف عبدون بالقرب من البوابة الرئيسية للدار موجهاً خطابه
للأيتام:

— أنا خارج دلوقت في زيارة رسمية، لو ربنا وفقني فيها
هتغير شكل الدار، وهتأمن حاجات كتير أوي -ووضع يده
على كتف عناني- وأخوكم الكبير هيبقى مكاني.

ومحتاج منكم كلكم قبل ما أخرج شوية حاجات:

أولاً، تدعولي ربنا يوفقني عشانكم.

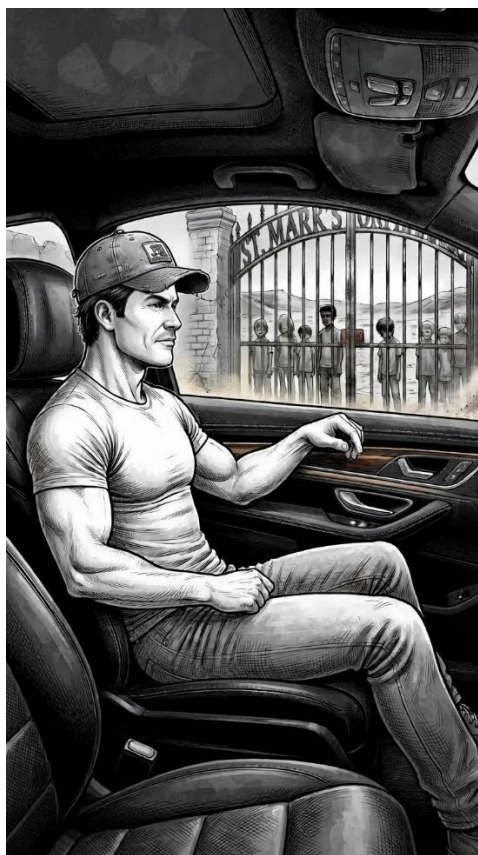
ثانياً، عايز تعهد منكم إن الدار تمشي زي ما أكون أنا موجود بالظبط.

ثالثاً، كلام عناني سيف على رقبة الكل، ولو حد عنده اعتراض على أوامره برضه تتنفذ، وأما أرجع ابقوا قوليلي شكأويكم.

رابعاً، هتوحشوني، ودي هتبقى أول مرة أكون في مكان إنتوا مش فيه.

وخرج عبدون من البوابة الحديدية، ففتح السائق الملكي الباب بصمت جليدي... ركب عبدون وبصحبه زيدان، ومع إغلاق الباب انقطع صوت الدار تماماً. انقطع صوت الأطفال، وحفيف الشجر المحتضر، وحتى صوت نفسه الذي يلزمه في كل حالاته.

اليتم عبدون الآن منبهر يتفحص المقاعد الجلدية الفاخرة، ينظر
ليرى الدار مرة واحدة من مقعد الملوك، لم يرَ شيئاً، وابتسم
لانعكاس وجهه في الزجاج:



— هي دي العربيات، مش العربية الخردة اللي جوه دي.

وقال: إيه، البابا -الله لا يرجعه- كان بيقتد يلّمع فيها،

والعبيط سعيد عاملها مكتبه، قال يعني مكتب رئيس مجلس الإدارة.

ثم ذهب في حلم طال رحلته بأكملها، يتخيل الحراسة حراسته لا حراسة سعداوي، والسيارة "ملكة الصحراء".

أما زيدان، فمنذ أن علم بمصاحبة عبدون في رحلته وركوب السيارة، دخل إلى عالمه الذي لم يعد منه حتى الآن.

وصل عبدون وأخوه لدار سعداوي ليجدا استقبالاً كاستقبال الفاتحين.

لم تكن دار سعداوي مجرد مبانٍ وجنينة، كانت الدار عنواناً للثراء؛ أبواب طويلة مغطاة بشرائح الماء المذهب، صالونات يمتد بلاطها كبخيرة عظيمة، وموائد طعام يحيط بها خدم بقفازات بيضاء يتحركون كالأشباح.

جلس عبدون على طرف كرسي عملاق، يتناول قطع اللحم
الشهية بأصابع ترتجف، وعيناه تسرحان في الأسقف المرسومة.

وفي تلك اللحظة، رنّ في أذنه صوت شيخون كأنه يجلس خلف
ظهره مباشرة:

— أنت مفكرتش تغيّر الأوضة دي؟

تخيل عبدون نفسه يجلس في نفس هذا البهو، لكن في دار الأمل.
تخيل خشب غرفة البابا البالي وقد تحول إلى جرانيت براق.

مال عبدون على سعدأوي الذي كان يمضغ طعامه بشراهة
مستفزة، وقال بنبرة حائل أن تكون ثقيلة:

— حلوة الدار عندكم يا صديقي، ليها هيبة كده.

ابتسم سعدأوي ابتسامة غامضة، وترك ملعقته بهدوء:

— الشكل الخارجي للدار، وحتى العفش والتحف
والأنتيكات، كل دي حاجات مهمة يا عبدون، بتخلق الهيبة
قبل حتى ما تتكلم.

اعذرني، مش قصدي، بس تفكر لو كنت جيت لقيتني قاعد على
مكتب ملخخ وكروسي مشقق، كنت هتحس بنفس الهيبة دي؟

عبدون في نفسه:

— نحمد ربنا إنه مجاش لحد دلوقتي، الدار عندي كانت
هتبقى فضيحة.

ثم نظر عبدون في وجه زيدان الذي لا يكاد يسمع أحداً ولا يرى
غير الطعام الوفير أمامه، وقال بصوت عالٍ:

— نحمد ربنا، وشكراً يا صديقي على الغداء العظيم ده،
والمرة الجاية نتغدى عندنا في دار الأمل.

سعدأوي بضحكة صفراء:

— شرف لينا يا عبدون. بينا على المكتب بسرعة نتونس شوية، عامللك مفاجأة -وأشار بعينه على زيدان ألا يحضر الحديث-.

ساعد زيدان عبدون -باندماجه في الطعام- بصوت حاد:

— يا زيدان، خلاص كده، ممكن تستنّاني في الصالون.

دخل سعدأوي وعبدون المكتب، وبعد انبهار عبدون بالمكتب ومحتوياته، جلس وعيناه هائمتان في كل تفصيلة.

سعدأوي:

— إنت إيه اللي إنت جاييه معاك ده؟ مش هنعرف ناخذ راحتنا في الكلام، مش كنت تقوّلي الأول؟ أنا كان عندي ترتيبات مهمة وإنت كده بوظتها.

عبدون في نفسه:

— هو مش هو اللي قالى جيبه معايا، ولا كان شيخون؟ ولا
أنا اللي بيتهيا لي؟

ثم بصوت مسموع:

— آسف يا صديقي، بس إنت عارف التوترات اللي عندي
في الدار، وزيدان الوحيد اللي فيها قوي، هو المساعد بتاعي،
بس قلت احتناطي أجيبه معايا.

أهمل سعداوي حديث عبدون وقال:

— قولّي إنت إيه أكثر حاجة محتاجها في دار الأمل
وناقصاكم.

عبدون:

— الفلوس... الفلوس... الفلوس.

سعدأوي ضاحكاً:

— لا، غير الفلوس، مش كنت عايز تجدد الدار وتخليها زي

اللي إنت قاعد فيه ده؟ طب بلاش، مش قلت لشيخون إنك

عايز تجيب "ملكة الصحراء"؟

بلاش، مش عايز تتعرف على دور الأيتام الأغنياء اللي في الجهة

الثانية ناحية الغرب؟

عبدون بتلهف:

— طبعاً عايز، قولّي إنك هتساعدني في الموضوع ده.

سعدأوي:

— هساعدك؟!

أنا ساعدتك خلاص يا صديقي، وقبل ما توصل كان وفد رسمي من دور أيتام الغرب وصل، ومستنيين دلوقتي في قاعة الاجتماعات، ومتقلّش، هما عارفين كل حاجة.

وأنا وشيخون متفقين معاهم على كل حاجة، حتى السلفة اللي عايز تاخذها منهم، بس أهم حاجة متنساش كلام شيخون، لا بتاع إنك مسيطر ولا بتاع التنمية المستدامة.

وصحيح، أكيد المفجوع اللي جاي معاك ده مش هيحضر.

عبدون:

— لا، متقلّش، أنا بقيت خبرة دلوقتي.

وبجد، أنا مش عارف أرد عليك، أقولك إيه؟ إنت أجدع صديق في العالم، وبالنسبة لزيدان اعتبره هواء، مش موجود.

وتوجه الزعيمان إلى قاعة الاجتماعات.

وفي تلك القاعة المغلقة، حضر ممثلو عدة دور أيتام من الغرب،
بملايح جاذة وملابس رسمية أنيقة.

وبدون ترحيب كثير، انخرطوا سريعاً في العمل.

رئيس أحد الوفود بلغة عربية متعثرة:

— نحن نعتزّ كثيراً بالبابا السابق، كان شريكاً وفيّاً على
مدار ثلاثين عاماً، وقد أسفنا على غيابه.

ونعلم جيداً وضع دار الأمل، ونتطلع إلى مزيد من الاستقرار
بالدار، ومتفائلون بتولّي قائد قوي وشجاع مثلك للمهام.

عبدون:

— من ناحية الاستقرار متقلقوش، رغم إن الدار عندي
كبيرة أوي، وكلها شباب كبيرة، والسيطرة عليها مش سهلة،
لكن أنا محقق نجاحات كبيرة.

وده مش بس عشان خايف على إخواني، أنا مدرك مخاطر انهيار دار فيها العدد ده.

وقادر أتحمّل مسؤولية الأيتام اللي عندي، وأتحمّل مسؤولية حماية الأشقاء في المنطقة عندنا، ومصالح الغرب اللي يهمه استقرارنا.

نظر سعدأوي بإعجاب لعبدون:

— واحنا أشقاؤه، ونضمن عبدون في أي حاجة.

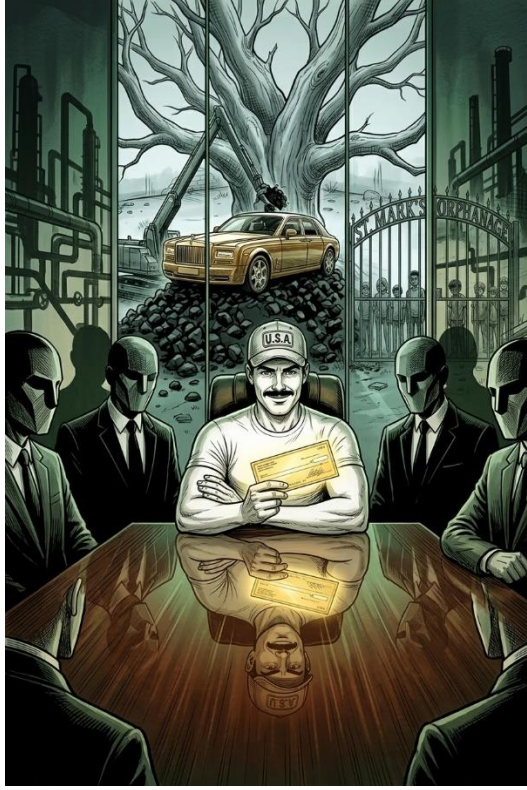
وعرض وفد الغرب الصفقة على البابا عبدون: قرض ضخّم يمكّن عبدون من تطوير دار الأمل وتنفيذ مشروعات إنتاجية تحقّق التنمية المستدامة.

وصرحت الوفود، على استحياء، أنهم متفهمين خطوة شراء
السيارة الأسطورية "ملكة الصحراء"، كي يحافظ عبدون على
"مظهر الدار والاستقرار"، لكن ما يحصل عليه من الأثقاء، أما
أموال الغرب فهي للتنمية المستدامة.

أحد رؤساء الوفود بلغة عربية سليمة:

— احنا بنسلفك عشان نضمن إن الدار ما تقعش يا عبدون...
بس الفلوس دي ليها ضمانات ومواعيد سداد،

رگز وخذ بالك، إحنا عندنا رغبة في كسب صديق لثلاثين
سنة قادمة.



وانصرف الوفد بعد توقيع عبدون دون حتى أن يقرأ اتفاق القرض
وشروطه، واستلم شيكاً بمبلغ القرض وهو في قمة النشوة.

كان في الزاوية وفد آخر يجلس بعيداً يراقب كل ما يحدث بحذر،
وبدا عليه الإعجاب بعبدون.

لم يكن يملك عبودون رفاهية السؤال عمّن هم، أو لماذا يجلسون
بقاعة الاجتماعات أثناء انعقاد اجتماعه مع دول الغرب.

كان عبودون عالقاً في أحلام اليقظة، يرى نفسه راكباً "ملكة
الصحراء"،

حتى أيقظه سعداوي:

— يالا بقى عشان نحل كل مشاكلك -وأشار إلى الوفد
الغامض-.

سَلَّم عليهم عبودون بحرارة، فبادلته الوفد نفس الحرارة والترحيب،
ولاحظ عبودون إتقانهم للغة العربية كأنهم عرب.

سعدأوي:

— دول بقي يا سيدي اللي هيحلّوا كل مشاكلك، وهتأمنهم
ويأمنوك، إنتوا الباب في الباب، رحّب معايا يا عبدون
بـ"ولاد العم".

عبدون مرتبكاً:

— أهلاً أهلاً، شيخون كلمني عنكم كثير، وكنت في انتظار
مقابلتكم والتعرف على أشخاصكم بفارغ الصبر.

رئيس الوفد:

— بس إحنا ما كانش عندنا نفس الشغف نتعرف عليك.
يصمت عبدون ويتلعثم ويتعرق، وينظر لسعدأوي يستجديه
بنظراته أن يتدخل.

يستكمل رئيس الوفد حديثه:

— عشان إحنا أصلاً نعرفك ومتابعينا كويس.

فيضحك الجميع، ويبتسم عبدون ابتسامة مجاملة، وعبدون في نفسه:

— أبو أم تقل دم أمك!

رئيس وفد "ولاد العم":

— شوف يا عبدون، إحنا ناس عمليين، ومايهمناش الفلوس،
يهمنا الاستقرار، ومعلوماتنا بتقول إنك تقدر تضمن لينا
الاستقرار اللي محتاجينه.

وخذ بالك، إحنا عمرنا ما نبيع صديق لينا، والبابا اللي قبلك كان
صديق لينا، بس دماغه كانت مقفولة في حاجات ومتعاون في
حاجات تانية، ورغم كده وجوده كان بيطمّنا عشان الاستقرار.
عرفنا إنك محتاج غاز، وده اعتبره حصل، والغاز هيوصلك على
طول، كل ما تحتاج.

ولو احتجت مساعدة في علاقاتك في أي حنة هنا في الإقليم، في الشرق ولا الغرب، إحنا بنساعد الأصدقاء الأوفياء اللي زيك.

عبدون:

— متقلقوش خالص، الأيام هتثبت إنكم كسبتوا النهاردة صديق مخلص، بس كنت عايز أسأل، هنمضي وننفذ ده إمتى؟

رئيس الوفد:

— أولاً، إحنا مش بنقلق.

ثانياً: الغاز هيوصل دار الأمل قبل ما إنت توصل.

ثالثاً: خليك عارف، إحنا لا الغرب ولا سعدأوي ولا شيخون، يعني مبنديش فلوس هباء ولا شيكات في نفس الاجتماع وإنت قايم.

النهاردة الغاز وصل قبل التوقيع عشان ظروفك الاستثنائية، لكن لازم تعرف إن سياستنا تاخذ الثمن الأول.

عارف يا عبدون، إيه أكثر حاجة طمّنتنا النهاردة؟

عبدون:

— إيه يا فندم؟

رئيس وفد "ولاد العم":

— أولاً: عشان إنت ما سألتش حتى على أسمائنا.

ثانياً: عشان جببت معاك هنا زيدان، وحبست الواد بكر، وكمان عشان عجبّتنا سياستك مع رجالتك، إنت ماشي صح، وهتحقق الاستقرار. بس شوف بس هتعمل إيه مع سعيد.

انتهى الاجتماع، وانتقل عبدون إلى جناحه الملكي في فندق مؤمن، استلقى على السرير الحريري، وفي نصف غفوة، شعر بالسقف يدور، تساءل:

— هما إزاي الناس دي عارفة كل حاجة كده، حتى اللي
بيحصل بيني وبين إخواتي؟

مش مهم، مش مهم، المهم مشينا وخذنا الشيك، وبكرة نركب
"ملكة الصحراء".

وقبل أن يدخل في نوم عميق، تذكر كلام سعدأوي عن إدارة الدار
والوقية بين رجاله وأيتام الدار، ثم كلام شيخون، ثم شروط
"ولاد العم"...

فتح عينيه وتمتم بسخرية مرّة:

— ده على كده البابا وسعدأوي وشيخون، محدش فيهم
عبقري ولا حاجة، في ناس تانية هي اللي سايقة الكل،
ومفيش حد فهلوي. مش مهم، مش مهم.

وتذكر زيدان:

— إيه ده، أنا نسيتك إنت خالص! برضه مش مهم، مش مهم، أكيد سعداوي هيتصرف، إحنا ضيوفه برضه.

تقلب عبدون على جانبه الآخر، وأغمض عينيه المجهنتين وهو يتمتم مرة أخرى:

— يالا، مش فارقة مين سايق ومين متسايق، المهم إني نايم دلوقتي على سرير حرير... يالا، محدش واخد منها حاجة.

لم يكن يعلم عبدون أن زيدان، الذي أهمل السؤال عنه منشغلاً بأحلام اليقظة، كان في ذات اللحظة يجتمع مع وفد "ولاد العم" هو الآخر، بترتيب من سعداوي وبأمر "ولاد العم"... ولا نعلم ما دار في هذا الاجتماع.

وعلى الجانب الآخر، في دار الأمل، كان هناك شيء ما يحدث؛ لم يكن هدوء الأطفال في آخر صباح لعبدون في الدار نتيجة لليأس، أو قلة الطعام، أو غياب البابا، أو حتى اعتقال بعض الإخوة.

لكن كل هذا، بالإضافة إلى عدوى ما، كانت تنتشر في الأجساد تدريجياً دون أن يلاحظها أحد.

وبدأ الإعياء يشتد بدرجات وبسرعة متباينة؛ البعض لا تبدو عليه علامات الإعياء حتى الآن، والبعض ارتفعت درجة حرارته، وغيرهم ظهرت بقع حمراء على جلودهم، إلا أن الصغيرة "أحلام" كانت أسرع من افترستها العدوى، واحتضنتها فائن.

فاتن:

— يا ليا أحلام، قومي عشان دورك في تنظيف أرضية المطبخ.

أحلام:

— أنا مش قادرة يا فاتن أقوم، ممكن كمان ساعة.

فاتن:

— لا ساعة ولا اتنين، ولا هتقومي أصلاً، أنا عملت كل حاجة، وبنكشك بس.

أحلام:

— فاتن، عايزة أسألك سؤال؛ هو أنا السنة اللي فاتت لما قلناك "يا ماما"، زعلتى ليه وقولتيلي "قوليلي يا فتون"؟ هو أنتي مش بتحبييني؟

فاتن:

— السنة اللي فاتت؟ ياااه، ده أنتي قلبك أسود يا جزمة! أنتي السنة اللي فاتت كنتِ لسه بتهتهي، ومش بتتكلمي، وأنا كمان كنت صغيرة، مش أنتي كبرتي بس، أنا كمان كبرت، وممكن تقوليلي "ماما فاتن".

أحلام:

— هو إحنا ليه كلنا مفيش عندنا ماما؟

فاتن:

— مين قال كده؟ أنتي رجعت في كلامك، مش هتقوليلي
"ماما" ولا إيه؟

أحلام:

— طب لو أنتي ماما، مين بابا يعني؟ بكر ولا عبدون ولا
زيدان ولا عناني ولا البابا اللي مشي؟

فاتن:

— أنتي عايزة مين فيهم؟

أحلام:

— بصراحة، ولا واحد، أنا عايزة سعيد.

فاتن:

— أخ، ربنا يستر، أنتي لو قلتي الكلام ده قدام عبدون، سعيد
هيختفي ورا الشمس، وفي يومها هيبقى في البدروم.

أحلام:

— هو الشمس في البدروم؟

فاتن -تتذكر كل إخوتها في البدروم-:

— مش الشمس بس، ده الشمس والقمر والنجوم وكل حاجة
كانت ممكن تنور حياتنا.

تلاحظ فاتن أن عيني أحلام قد أغلقتا، تستشعر حرارتها، وتخرج
مسرعة لإحضار دواء مناسب، تبحث في كل مكان، لا تجد،
وتلجأ على الفور لسعيد.

فاتن:

— سعيد، الحقني، أحلام سخنة أوي وبتهذي، ومش عارفة
أتصرف.

سعيد:

— خلّي سبع البرمبة عناني يتصرف، ولا استنّي البابا
المبجل عبدون يجي يملّس عليها ببركاته وتخف.

فاتن:

— ده بجد يا سعيد، إنت شايف إن ده الرد المناسب لما
أقولك أختك تعبانة ومفيش علاج؟

سعيد:

— مناسب يا فاتن، عشان أنا "سعيد" مش دكتور سعيد ولا
البابا سعيد.

يا فاتن، ده أنا ما وقفتش جنب حد في الدار دي عشان أساعده،
إلا في آخر اليوم هتف "يعيش عبدون".

بقولك إيه يا فاتن سيبيني والنبي، أنا فيا اللي مكفيني، أنتي بنت
وبتفهمني في الحاجات دي أكثر، أنا معنديش حاجة أعملها.

لم تكن الصدمة على فاتن بسيطة لتتمكن حتى من إدراكها،
ورحلت من أمام سعيد مسرعة في اتجاه غرفة البابا، ودخلت
دون استئذان لتجد عناني يجلس على كرسي البابا، ويضع قدميه
على المكتب، وباستعلاء:

— أنتي إزاي تدخليني من غير ما تخطبي؟

فاتن:

— مش وقته يا عناني، أحلام تعبانة ومفيش دواء.

عناني:

— طيب، أولاً مينفعش تقوليلي "عناني" حاف كده، أنا
دلوقتي البابا، حتى لو مؤقتاً.

ثانياً: تخطبي على الباب بعد كده.

ثالثاً: وأنا أعمل إيه يعني لأحلام؟

فاتن:

— اتصرف يا عم البابا، دَوّر على دواء هنا، أو هات فلوس وأنا أطلع أدوّر على طريقة نجيب دواء من برّه الدار، أو طّلّع أختنا منى من البدروم، هي اللي بتعرف تتصرف في الحاجات دي.

عنانى:

— أولاً، مفيش فلوس.

ثانياً، محدش هيطلع من الدار.

ثالثاً، زي ما عبدون قال، البدروم يتفتح للأكل ولدخول مشاغبين جداد، يعني من الآخر، لو عايزة منى تاخذ بالها من أحلام، الحل الوحيد أحلام اللي تنزلها.

خرجت فاتن مسرعة لتجد الحرارة والإعياء يشدد على أحلام
التي تبدو قد غابت عن الوعي، تحاول فعل أي شيء بلا فائدة،
لتعود إلى عناني ومرة أخرى تدخل متلهفة دون استئذان:

— يا عناني، خلاص، نزل أحلام لمنى تتصرف.

عناني:

— أنتي تاني وبرضه من غير ما تخطبي على الباب؟!
طيب، أنا هسامح المرة دي كمان بس عشان أحلام، روعي
أنتي وأنا هبلغ تعليماتي للرجالة تنزلها البديروم.

وصل رجال عناني للصغيرة أحلام، وحملوها متجهين نحو
البديروم، وسعيد وفاتن يشاهدون متأثرين عاجزين عن فعل شيء،
وما إن دخل رجال عناني للبديروم حتى عادوا إلى فاتن وسعيد:
— أحلام ماتت.

انهارت فاتن، ووقف سعيد لا يقوى على النطق، وخرج رجال
عناني بجثمان الصغيرة، واختطفته فاتن في حضنها.

أحد رجال عناني لسعيد:

— عناني بيقولك أحلام لازم تدفن، وبيقولك ادفنها إنت
بسرعة عشان المرض ميئنتشرش في باقي الإخوات.

فاتن لم تسمح لرجال عناني أن يكملوا، مقاطعة:

— سعيد يدفنها؟! سعيد اللي رفض يعالجها؟! سعيد الجبان
-وتنظر لسعيد قائلة:-

إنت عارف يا سعيد إن آخر كلمة قالتها كانت اسمك، إنت طب
عارف إنها كانت نفسها تقولك "يا بابا"... كويس إن أحلام ماتت
قبل ما تصدم فيك زي ما أنا اتصدمت... أنتيا سعيد متستحقش
حتى تدفنها.

سعيد ينهار، يضع جبينه على الأرض في وضع السجود:

— سامحيني يا أحلام، سامحيني يا فاتن.

فاتن:

— لا يا سعيد، مش هسامحك، ومش هتاخد فرصة تسكن
ضميرك بدفنها.



وينهر الجميع، ويُحمل جسد الصغيرة لدفنها في حفرة في الحديقة
الخلفية، وتجلس فاتن فوقها لتبكي بكاء أم فقدت طفلتها.

غاب عبدون ورفيقه زيدان أكثر من المتوقع، ربما خاضا رحلة جديدة لجلب "ملكة الصحراء".

وفي المقابل، كانت العدوى المرضية تنتشر بين الصغار، ورجال عناني مشغولون فقط بالسيطرة عليهم وحماية الدار ونظام الدار.

عادت فاتن لسعيد:

— سعيد، أنا مش جاية أقولك متزعلش، ولا جاية أقول إنني سامحتك، بس جاية أقولك إخوانك كلهم تعبانين، عايزاك تساعدني ونفكر سوا نعمل إيه.

سعيد:

— أهم حاجة دلوقتي نفصل الكويس عن المريض -ثواني وراجع- ويتوجه نحو غرفة البابا.

سعيد:

— يا عناني، إختوتنا تعبانين، لازم نعمل حاجة.

عناني -وعينه تدمعان-:

— نعمل إيه طيب يا سعيد؟ أنا مقهور، وعبدون سابلي الدار
في وقت صعب أوي.

ويكمل: انصحنى يا سعيد، نلحقهم إزاي؟

سعيد:

— أولاً، محتاجين نفصل المريض عن السليم، ومحتاجين
الكبار يجازفوا ويدخلوا، يعملوا كمادات عشان الحرارة
تنزل، بس ده فيه مخاطرة عشان العدوى، وكمان محتاجين
منى والبنات اللي في البدروم معاً.

عناني:

— لا مقدرش أخرّج حد من البدروم، بس أقدر إني أبقى
أول واحد يدخل يعمل كمادات، ويهتم بإخوتنا، حتى لو هعدي
وأموت. وخذ يا سعيد، دي الفلوس اللي إداهالي عبدون ليا،
اتصرف، وحد يخرج يدور على أي طريقة نجيب علاج.

سعيد:

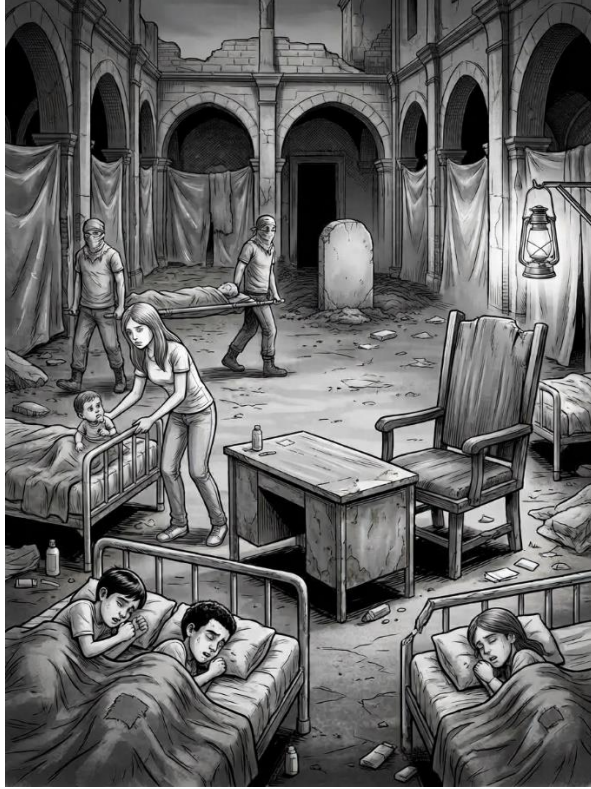
— من غير أختنا منى، الفلوس دي ملهاش لزمة، حتى لو
عرفنا نوصل لمكان نجيب منه دوا، إحنا مش عارفين
محتاجين أدوية إيه.

عناني:

— مقدرش يا سعيد أكسر كلام عبدون.

أنا هغيّر نظام الدار، بدل عنبر بنات وعنبر ولاد، هانخليهم عنبر
مرضى وعنبر كويسين.

وأنا اللي هبقى مسئول عن عنبر المرضى، وفاتن تبقى مسؤولة
عن الأطفال السليمة، تطمئنهم.



سعيد:

— إنت كده هتعمل كل حاجة صح، بس مش هتقنذ إخوانك
طول ما إنت خايف من عبدون ومش عايز تطلع أختك منى.

عناني:

— أنا بنفّذ تعليمات عبدون، حباً في الدار وفي إخوتنا؛ لو
مفّيش نظام، حتى لو إخوتك خفّوا، الدار هتقع.

أنا بحفظ النظام عشان الأصحاء، وإنّت عايزني أوقع النظام
عشان المرضى؟ نفّذ اللي أنا أمرت بيه يا سعيد.

نفّذ الجميع تعليمات عناني، الجالس الآن في غرف المرضى
يدأويهم بيده، حتى ظهرت عليه أعراض المرض وتحمل ولم
يظهر ذلك.

فاتن، بعد أن مرّت على كل المرضى، اتجهت تجلس مع الأطفال
شبه الأصحاء من غير المرضى، تحكي لهم قصصاً تضحكهم
وقلبها يتمزق.

وسعيد، الذي لم يجد ما يفعله، ظل يراقب، يتحرك بسرعة الصاروخ بين فائن وعناني ورجال عناني دون أن يفعل شيئاً.

كان في ذات التوقيت عبدون ورفيقه زيدان ينهيان الرحلة التي تحولت من زيارة لسعدأوي إلى جولة شحاتة واستدانة من كل دور الأيتام؛ أشقاء، و"ولاد عم"، وشرق وغرب.

كانت آخر محطات جولة عبدون المكوكية لدى الشقيق شيخون، وقبل أن يودّعه، اجتمعا آخر اجتماع رسمي بين عبدون وشقيقه شيخون.

شيخون:

— أبوة يا سيدي، على اللي راجع الدار بـ"ملكة الصحراء" وبشيكات ملهاش عدد، ده إنت كده معاك فلوس أكثر مني.

عبدون:

— العفو يا شيخون، إحنا فين وإنتوا فين.

شيخون:

— أنا أصلاً كنت عايزك، قبل ما تمشي، في موضوع:

في بداية أزمالك كنت سلفتك فلوس، وإنت عارف إني بحبك
إزاي، ودي لو فلوسي كنت سبتهالك طبعاً، بس دي حقوق الأيتام
اللي عندي.

عبدون:

— بس أنا اشتريت "ملكة الصحراء"، ولو سددت الفلوس
دي دلوقتي، مش هعرف أجدد الدار، والعيال هتزعل، ومش
بعيد يخلّوا سعيد البابا.

شيخون:

— وهو إحنا نرضى بده برضه؟ بص يا سيدي، فاكرو
الشجرة اللي كنا اتفقنا إن أول قطفة منها ليّا؟ إيه رأيك تببيعها
ليّا بالفلوس دي.

عبدون:

— أنا كنت نأوي أصلاً أقطعها هي والشجر اللي حواليتها
عشان أجد الدار، وكنت هعمل جراج لـ"ملكة الصحراء"
مكانها.

شيخون:

— حلو أوي كده، أنا عندي عرض ليك... إنت خلي الشجرة
مكانها، وأنا هشتريها وهي مكانها، وهادفع مرتبات للي
هياخدوا بالهم منها، وأهو يبقى اسمك خلصت من دينك
ووقّرت فرص عمل.

وكمان هاخذ منك العربية الخردة اللي عندك، أحطها في المتحف
زي ما اتفقنا، بس ده طبعاً في السر.

وياسيدي، عندي ليك مفاجأة: باقي الشجر اللي هتقطعه نحوله
فحم، وأنا أتصرف في بيعه ليك، وكده تبقى دلّعت إخوانك
وغرقتهم فلوس بلا سعيد، بلا قرف.

تلمع عينا عبدون، ليقبّل شيخون، ويخرج لزيدان الذي ينتظره
بالخارج، ويستقلّ "ملكة الصحراء".

الفصل الحادي عشر: القصر والقبر

عاد عبدون من رحلته... حاملاً لا مجرد حقائب، بل موكباً
عملاقاً.

تتقدمه السيارة "ملكة الصحراء" تشق غبار الصحراء التي
تحاصر الدار.

هيكل ضخمة، نوافذ سوداء، وصوت محرك يزأر كحيوان
مفترس.

صوت آلة التنبيه يرتفع احتفالاً بعودة عبدون وزيدان مستقلين
سيارة البابا الجديدة.

وتتبعهم عدد من السيارات المحملة بالخيرات والمعدات،
وترافقهم سيارة عملاقة مخصصة لنقل السيارات.

دخل عبدون الدار ينظر إليها باشمزاز بعد أن أنهى جولته
المكوكية.

كان عبدون ينتظر استقبلاً كبيراً وانبهار الأيتام بـ"ملكة
الصحراء" وملابس عبدون وزيدان الفاخرة، أو على أقل تقدير
بالخيرات التي تملأ السيارات.

عبدون على البوابة، وخلفه زيدان، ويستقبلهم يتيमान فقط من
رجال عناني

عبدون:

— عناني فين، وما جاش هنا بنفسه ليه؟

رجل عناني:

— القائد في عنبر المرضى.

عبدون:

— عنبر مرضى إيه؟! هو انتوا قلبتوا الدار مستشفى وأنا مش
هنا؟ وسّع وسّع.

بعد أن نهر عبدون إخوته من رجال عناني، توجّه لزيدان قائلاً:
— خش يا زيدان ظبط الدنيا لحد ما أشوف قصة عنبر المرضى
ده.

وتقدم عبدون نحو العنبر، وأثناء مروره بالجنيّة وجد فائن تجلس
وحولها الصغار، وما إن شاهدت عبدون توجهت له بسرعة.

فائن:

— يا عبدون، إنت إيه اللي أخّرك؟ إحنا في مصيبة.

عبدون:

— مصيبة إيه يا فائن؟ وباقي إخوتنا فين، وإيه قصة عنبر
المرضى دي؟

فاتن:

— معرفش، بس فجأة إخوانك بدأت تظهر عليهم أعراض
غريبة، سخونية وبقع حمراء على الجلد، وأنا مش بفهم في
الحاجات دي، كانت دايماً منى اللي بتعملها، وكلّما عناني يطلّعها
بعد موت أحلام لكنه رفض، ومش عارفة...

قاطعها عبدون:

— إيه، أحلام إيه ماتت إزاي؟! إنتوا بتهزروا؟ يعني أغيب كام
يوم أرجع الأقي الدنيا خربانة؟

ويدخل عبدون لغرفة البابا ويشير لزيدان:

— نص دقيقة، إنت وعناني تبقوا قدامي.

ينصرف زيدان ليعود مسرعاً برفقة عناني الذي بدأت تظهر عليه
أعراض المرض.

عبدون بغضب:

— عناني احكي لي إيه اللي حصل وأنا مش هنا.

وأبلغ عناني عبدون بكل ما حدث تفصيلياً، ولاحظ عبدون آثار
العدوى عليه وهو يتكلم.

عبدون:

— طيب إنت مين سمحك تغيّر نظام الدار وتخلي عنبر واحد
فيه بنات وولاد مع بعض؟

وكمان هو أنا مش قلتك اللي يحصل بيني وبينك ميطلعش برّه؟
ليه قلت لسعيد إني مديك فلوس؟ مش عايزها كان المفروض
تقولي شكراً ومتاخذهاش، مش تاخذها وتديها لسعيد.

عناني يتلغنم:

— سعادتك مش عارف الأول...

عبدون مقاطعاً:

— أبعد بس، ورا شويه، مش ناقصة عدوى ومرض.

وشوف يا عناني، في الطبيعى كنت هاعقبك على اللي ده عقاب كبير، لكن في حاجة واحدة تشفع لك، وهي إنك التزمت ومخرجتش حد من البدروم ألتزمت بأوامري في أصعب الظروف.

يلا مش مهم دلوقتى، وخلاص سلم مهامك لزيدان. واقعد يا زيدان، عايزك.

بعد أن خرج عناني وتوجه دون انتظار أوامر أحد إلى عنبر المرضى، جلس عبدون لزيدان:

— يا زيدان، عايزك تنزل للسواقين، وتأخذ الأخ سعيد اللي قاعد
ملوش لازمة ده وباقي إخوانك اللي قاعدين مع فاتن، وتنقلوا كل
حمولات العربيات لجوه.

وتخلى العمال يخشوا يرفعوا العربية الخردة، وخلى "ملكة
الصحراء" برّه لحد ما أنزل أشوف هاركنها فين.

يبدأ زيدان بتنفيذ التعليمات؛ سعيد وإخوته لم يفرح أياً منهم كالعادة
بخيرات الإعانات، كما لم يرفض أياً منهم أوامر زيدان.

وبالتزامن مع ذلك، كانت رجال شيخون تتحرك في كل
الاتجاهات؛ البعض يفرغ السيارات، والبعض ينصب متاريس
حول الشجرة التي اشتراها سيدهم، وبعضهم يساعد شاحنة نقل
السيارات في الدخول من بوابة الدار.

سعيد لزيدان:

— إحنا مش فاهمين هو في إيه، ومين الناس دي، وليه العربية
دي داخلة، وليه في متاريس بتتخط في الجنينة مكان ما الأطفال
بتلعب؟

زيدان:

— دُخِلْ إنت بس الأكل، وهفهمك كل حاجة.

دخل زيدان مسرعاً لعبدون:

— يا ريس، واضح إننا عندنا مشكلة، سعيد بدأ يناقر فينا ويبسأل
على المتاريس.

عبدون:

— متقلّش، أنا في دماغي ترتيب يظبط الدنيا.

اخرج إنت بس وحاول تلطّف الأمور مع إخوانك اللي في الجنينة،
وعايز أول حاجة تعملوها هي نقل العربية الخردة.

ولأزم سعيد يعترض عليهم، ولو ما اعترضش استفزوه، وأول ما تبدأ الخناقة هاخرج أنا أتصرف.

ينفذ زيدان تعليمات عبدون بحذافيرها، وبمجرد أن يقترب رجال شيخون من السيارة يعترض سعيد، ويبدأ زيدان في استفزازه أكثر بكل الطرق الممكنة ليخرج عبدون، ويقف على ذات المورجحة التي نصّب نفسه رئيساً للدار من فوقها، في مشهد مشابه.

عبدون:

— في إيه يا سعيد؟ إنك هتفضل كده تعارض من أجل المعارضة، وخلص، بتتخاف عايز إيه؟

سعيد:

— إنت إيه اللي إنت بتعمله ده يا عبدون؟ ومين الناس دي وبيأخدوا عربية البابا ليه؟ وبيحطوا متاريس في الجنينة ليه؟

عبدون:

— شاطر أنتيا سعيد وخايف على حقوق إخوانك في اللعب وحقك
إنك يبقى عندك عربية خردة تتمدد فيها.

بس مش خايف يعني على إخوانك يموتوا من الجوع، ومسألتش
نفسك العيال دي بتاكل منين ولا أنا بعمل إيه.

إنك فاكّر إن أنا بحكم دار بجد بقي وكده لا يا سعيد،

أنا يوم ما جيت مكان البابا ملقيتش دار، لقيت حاجة كده قالولي
خد دي.

ولولا ذكائي وربنا اللي في ظهري، كانت العيال دي ماتت من
الجوع.

ولا أنتي يعني ها يفرق معاك ده في إيه، مهو إنت سيبت أحلام
تموت، هاتخاف على الباقي يجوع؟

وأدار عبدون وجهه لباقي الأيتام:

— إنتوا عارفين أحلام ماتت ليه؟

عشان أنا مكنتش موجود، ولو كنت غبت أكثر من كده كنت هارجع ألاقيكم كلكم حصلتوها.

أنا كنت في رحلة عشانكم، جبت فيها أكل يقضينا شهور لقدام، وفرتلكم موارد تجيب فلوس من جوه الدار مش سلف ولا دين، مثلاً الشجر اللي حوالينا ده بيستهلك مياه وملوش لازمة، هيتشال ونتستفيد بمكانه.

العربية الخردة دي هتتباع بالكيلو عشان جنبنا العربية اللي واقفة على الباب تعمل للدار هيبة وتزود وتخلي الناس تتعامل معأنا بشكل مختلف،

وهنبني بفلوس الخردة دي غرفة إدارة عظيمة عشان تحفظ هيبتنا برضوا قدام الضيوف.

سعيد:

— كنت هصدقك يا عبدون لو كنت قلت إنك هتجيب دواء للي
عيانين... كنت هصدقك لو أول حاجة عملتها نزلت تظمن عليهم،
بدل ما تسيبهم عيانين وحي تخطب عشان تبني أوضة ليك بالدين
اللي إحنا كلنا هانسده من قوتنا.

عبدون:

— شوف مين بيتكلم عن زيارة المرضى، سعيد اللي رفض
يساعد أحلام وسابها تموت قدامه.

أنا مش ببني الأوضة عشاني أنا ببنيها عشان الدار، وأه ببني
أوضة، وهبني اتنين وتلاتة كمان هو عشاني ده عشان الدار.

وعشان تبقوا فاهمين أنا ليه منزلتش للعيانين؟ عشان أنا خدت
قرار محدش ينزل ثاني على اللي بيعالجوهم عشان نمنع انتشار
العدوى،

وبالنسبة للأدوية، أنا هبعت مع الرجالة اللي هياخدوا العربية
الخردة رسالة عشان يجيبوا مش بس دواء لأ، كمان دكتور.

المهم دلوقتي تساعدوهم يقطعوا الشجر، وأه صحيح، أنا بعت
الشجرة الكبيرة للعم محمد الشيخ، واللي هيشغل هياخد باله منها
هياخد مرتب كبير منه... يلا أهى فرص عمل كمان.

ونظر عبدون لفاتن قائلاً:

— يا فاتن، أنتي شايقة اللي أنا بقوله غلط؟

فاتن:

— معرفش يا عبدون، أنا مش فارق معايا غير العيال العيانة، ولو إنت هتعالجهم وتجيب دواء، أنا هساعد بكل اللي أقدر عليه.

والحاجة الوحيدة اللي أقدر عليها دلوقتي إني أقول لسعيد:

— ابعد يا سعيد، إنت رفضت تساعد أحلام، فبلاش تعطل أي حد بيساعد حتى لو تصرفه مش أكثر تصرف صح، بس أهو بيعمل حاجة يمكن تصيب...

ابعد يا سعيد وسيب عبدون وسيب العمال يشتغلوا، يمكن عبدون يعرف يعمل اللي إنت معملتوش.

ينظر سعيد إلى الأرض ويتوجه لعنبر الأصحاء بكل هدوء، ويعود عبدون لغرفة البابا، ويكمل العمال وضع المتاريس حول الشجرة، ويقطعون في باقي الشجر.

تساقطت الشجيرات التاريخية التي زرعها الأيتام جيلاً بعد جيل.
الفأس تأكل الخشب، وصراخ الأطفال يواكب سقوط الجذوع.

ومن الخشب المقطوع، أمر عبدون رجاله ببناء جراج لـ"ملكة
الصحراء"، وباقي الحطب رُكن في الزوايا في انتظار تحويله
لفحم...

وطلب من رجال شيخون حمل سيارة البابا العتيقة على شاحنتهم.

وفي نفس المكان الذي كانت تربض فيه السيارة القديمة، بدأت
أعمال بناء "غرفة البابا الجديدة"؛ صرح من الرخام المستورد
والديكورات الذهبية التي أمدّه بها "ولاد العم".

أطلّ سعيد من بعيد على ما يحدث وظل يراقب، ويتأمل كل شبر
في الدار، وفي عقله تتصارع أفكار مرعبة حيث واجه سعيد
نفسه:

— هو أنا صح ولا عبدون؟ ولا بكر؟ ولا منى؟ ولا كلنا غلط؟
يعني اللي مسؤول عن موت أحلام مين؟

ولا البابا اللي مشى ومرجعش وسابني، لا عارفين نتصرف ولا
عندنا أدوية ولا فلوس ولا أي حاجة تخلينا نتصرف.

طيب هو أنا بجد زعلت عشان أحلام، ولا زعلت عشان نظرة
فاتن ليّا لما ما ساعدتهاش؟

هو أنا بجد، زي ما هي شايفاني، زعلت على العربية ومزعلتش
على أحلام؟

طب لما كنت بقول "مفيش فايده"، كان بجد مفيش فايده؟ ولا بقي
مفيش فايده بسبب سكوتي وسلبيتي؟

يمكن لو كنت ما قلتهاش كان الوضع اتغير من زمان.

بس المهم دلوقتي يا سعيد، هتعمل إيه؟

هو خلاص بقي مفيش فايده، وأهو عبدون رجع بإشارة من ربنا
ليك، باع العربية، وبقي ملكش مكان في الدار كلها امش يا سعيد.

بس تروح فين...؟ أي حته غير هنا، يمكن تنجي بنفسك من
عبدون، ويمكن ينجي إخوانك منك.

حتى حلّ الليل، خرج سعيد نحو البوابة الرئيسية، لم يلحظ فائن
الجالسة تبكي وحدها في ظلمة الجنيّة، لكنها لاحظته، وبعد أن
قفز من فوق البوابة ليصبح خارج الدار...

فاتن من داخل الدار، ويفصل بينهما البوابة الحديدية:

— إنت رايح فين يا سعيد؟

سعيد:

— أنا ماشي يا فاتن ومش راجع ثاني.

فاتن:

— بسهولة كده؟

سعيد:

— لأ، مش بسهولة، بس لازم أمشي.

فاتن:

— امش يا سعيد، إنت مبتعرفش تعمل حاجة غير الهروب؛ مرة

تهرب بالضحك والهزار،

ومرة تهرب بيأسك وجبنك،

ودلوقت بالهروب اللي بجد. امش يا سعيد.

سعيد لم يرد على فاتن، ونظر بعينه إلى الأرض منكسراً، وتحرك دون أن يلتفت مرة واحدة للخلف.



وظلت فاتن تراقب ظله بعين دامعة حتى تلاشى ظل الأخ غير السعيد (سعيد).

وفي الداخل، كان البابا عبدون منشغلاً بتليفون البابا، يتصل بشيخون وسعداوي وولاد العم وكل من يستطيع الاتصال بهم.

عبدون مشاعره متضاربة؛ يتألم لمرض إخوته ويعتصر قلبه على موت أحلام،

وفي ذات التوقيت ينتظر بفارغ الصبر بناء غرفته الجديدة بعد أن وضع أساسها اليوم.

حصل عبدون على نصائح من الجميع للتعامل مع مرض إخوته، وبعض دور أيتام الغرب أبلغته أنها سترسل إليه علاجاً للمساعدة في علاج الأيتام.

كانت كل مكالمات عبدون حينها تشبه بعضها بشدة، عدا مكالمة العم شيخون الذي بادر هو بالاتصال.

شيخون:

— يا عبدون، في إيه عندك؟ طمني.

عبدون:

— لا متقلقش، كله تمام وتحت السيطرة.

شيخون:

— يعني إخوانك بخير؟

عبدون:

— إيه ده، إنت عرفت؟ أنا بحسبك بتسأل على التجديدات اللي بعملها في الدار...

والله رجعت لقيت العيال الصغيرة كلها تعبانة، بس إخواننا في اليمة الغربية هيبعتولي علاج.

شيخون:

— طب الحمد لله، طمني بقي على باقي الحاجات.

عبدون:

— كله ماشي زي ما اتفقنا، ومرض العيال عندي جه بمصلحة
في ترتيبه، كده في بالي هاتخلي العيال عندي هما اللي يطالبوا
بحبس سعيد للأبد ونستريح بقي.

شيخون:

— لأ، بلاش الثقة دي، إنت خلصت من بكرة، طلع سعيد؟ وسعيد
لو مشى هيطلع ألف سعيد، يعني تخلص منه؟ آه، لكن برضه
تفضل مسيطر بيد من حديد.

عبدون:

— طب عندي طلب عايزه منك... أصل أنا شوفت في عين
العيال نظرة مش اللي هي، وهو الشجر بيتقطع، وبصراحة
الجنينة بقي شكلها أقرع أوي وهي مفيهاش غير شجرة واحدة
اللي هي بتاعتك، عايز منك تساعدني نخلي شكل الجنينة حلو
عشان العيال تنسى الشكل القديم.

شيخون:

— بعد بكرة يبقى عندك شوية شجر ونخل زينة، كله بلاستيك، شكله تحفة، يخلي الشكل حلو ويوفر مياه وينسّي العيال الشكل القديم وانت بأي مونة تتبقي أعمل صبة خرسانة في أي حته وقول ده مشروع للمستقبل هابتلها في حلم التطوير للمستقبل وينسوا الماضي.

عبدون:

— الله يبارك لك يا كبيرنا.

شيخون:

— طب يلا افقل، عشان خالد ابني بيعيط شكله وقع وهو بيلعب. وأغلق شيخون الهاتف دون حتى أن ينتظر رد عبدون، الذي لم يعد يتأثر بمثل هذه الأمور.

وقبل أن يخلد عبدون للنوم، وبعد أن اطمأن أن أزمة نقص الدواء ستنتهي قريباً، قرر النزول والمرور على المرضى محضراً لهم بعض الهدايا التي جلبها معه من جولته.

لم يكن عبدون يتخيل حجم الكارثة حتى رأى بعينه المرضى من إخوته...

عاد لغرفته في حالة هستيرية، صوت بكائه يهز الدار، وبصوت عالٍ:

— يا زيدان، يا زيداااان!

(دخل زيدان مسرعاً)

— إنت إزاي متقولش إن الحالة تحت كده؟ أنا كنت فاكرها شوية برد وهتخلص.

زيدان:

— سعادتك، أنا كنت معاك في الجولة.

عبدون:

— إنت السبب في كل اللي حصل يا زيدان، لو مكنتش جيت
معايا مكنش الحال وصل لكده.

زيدان في داخله، محدثاً نفسه:

— هو أنا اللي خوفت أسيب أهم رجالتني هنا عشان ميأخدش
مكاني؟ عنده حق شمعون وكل ولاد عمنا في اللي قالوه عنك.

زيدان بصوت مسموع:

— اللي تشوفه حضرتك، نتصرف إزاي؟

عبدون:

— إنت جزء من المشكلة يا زيدان، ومينفعش تبقى جزء من
الحل، حالاً يبقى قدامي عناني وسعيد وفاتن.

زيدان:

— طب فائن وسعيد مفهوم وحاضر سعادتك، إنما عناني ليه؟

عبدون بعصية:

— هو إنت اللي هاتحدد أقابل مين ومقابلش مين؟ نفّذ يا زيدان
حالا.

يخرج زيدان وهو يتمتم، وبدا على وجهه الشر، وأبلغ عناني
وفائن بالأمر، ولم يجد سعيد، فحضرت فائن وحدها.

عبدون:

— فائن، قوليلي إزاي وصلنا للحالة دي، وإزاي ما قلتوش ليا
أول ما جيت إن الوضع سيئ كده؟ وفين سعيد وفين عناني؟

فاتن:

— عناني اتعدى وبيموت تحت، بس بيحاول يتماسك قدام
إخواتك.

أما سعيد، فهو ساب كل حاجة وهرب: سابلِك للدار وهرب،
وساب السجن ل بكر وهرب، وساب المرض لّيّا وهرب، وساب
لإخواته الصغيرين الوجع والمرض والموت وهرب.

عبدون:

— طيب مش وقته يا فائن، أنا طلبت شحنات أدوية وهتيجي
قريب، قوليلي نتصرف إزاي.

تنهار فائن وتضرب على وجهها بعنف:

— نتصرف إزاي؟!!!

إنت اللي بتسأل نتصرف إزاي؟! معرفش، معرفش، معرفش...

(ثم تخفض صوتها كأنها قد جُنَّت)

— عناني اللي بيحاول يعالج، أنا مبعملش حاجة غير إني أهوّن
عليهم على ما يموتوا.

عبدون:

— يعني مفيش حل؟

وفجأة تتغير ملامح فاتن للفرح، وبكل حب:

— يعني إنت بجد بتدور على حل؟

عبدون:

— طبعاً هو ده ممكن يبقى فيه شك، إيه الحل يافاتن؟

فاتن:

— نزلني يا عبدون لمنى، هي اللي بتفهم في الحاجات دي،
وأوعدك بعدها أسمع كل حرف تقوله.

عبدون:

— انزلي طبعاً، هو حد يقدر يمنع؟

يقاطع زيدان:

— عناني اللي منعهم يا ريس.

عبدون بغضب:

— اطلع برّه يا زيدان، وتستنى فاتن على الباب، وأي أمر تقوله فاتن مهما كان يتنفذ ولو على رقابتك، وده من دلوقتي لحد ما أنا أقول خلاص.

وبمجرد سماع فاتن لحديث عبدون، ارتمت في حضنه وتمسكت به بعنف، شعرت كأنها تبحث بداخلها عن حضن البابا وحضن بكر وسعيد ومنى، وكل من كانت تنتظر منهم السند.

أما عبدون فكان الحزن الذي لم تتخطّ مدته ثوانٍ يمر عليه كسنوات، وفي عقله العديد من الأسئلة المريبة.

يقول في نفسه:

— هو ده الحزن اللي كنت مستنيه من بدري يا عبدون؟ أخيراً
حصل!

لأ، الظروف مختلفة أكيد، أنا كنت عايز حزن ثاني، حب مش
خوف.

بس ده مكنش حزن خوف، ده العكس، كان حزن أمان.

طب يا ترى هي حست بنفس الأمان اللي أنا حسيت بيه؟

طب هو حزنه للبابا زمان كان...؟

وقبل أن تكتمل صراعات الأفكار، قاطعهم زيدان:

— يلا يا فاتن.

عبدون قبل أن يخرجوا:

— يا زيدان... إنت بقيت من أكبر مشاكلي.

ويخرجان متجهين إلى البدروم.

وقبل أن تتوجه لسجن النساء، مرت فاتن على بكر في سجنه،
ونظرت من النظارة -فتحة في باب الزنزانة-.

في العتمة الرطبة، كان بكر يجلس "كملك" يفترش نصف
الزنزانة وحده، وزملاؤه يتكدسون في النصف الآخر يستمعون
لحكاوييه.

فاتن من خلف الباب:

— يا بكر.

المعتقلون الذين لم يسمعا صوت فاتن أو غيرها منذ فترة طويلة،
هرعوا نحو الصوت، فعنفهم بكر:

— كله يفضل مكانه، أنا ما أذنتش لحد يتحرك.

فيعود الجميع إلى أماكنهم، ويوجه بكر حديثه لفاتن من مكانه.

بكر:

— فاتن ياااه، أخيراً عظمتك رضيتي عيني، ههههه، قوليلي
بقي إزاي حبيبك عبدون سمحلك تنزلي هنا... أنتي اللي رضيتي
عليه ولا هو اللي رضي عليك؟

فاتن:

— أنا مش فاهمة منك حاجة يا بكر، إخوانك فوق بيמותوا.

بكر:

— خلي البابا يعالجهم.

فاتن بعصبية وصراخ:

— إيه، هو في إيه إنتوا كلكم مش حافظين غير نفس الكلمة؟

بكر:

— كلکم؟! والله أنتي أدري، بصّي، خلی إخوانك یصبروا،
میموتوش لحد ما أنا أبقي البابا وأشوف أعمل إيه...
ومتقلّيش، الكلام ده قريب أوي.

فاتن:

— إنتوا كلکم مفیش فيکم أمل، كلکم واحد، كلکم نفس التربية
ونفس الأخلاق، وأي حد كان هيبقى البابا، كان التانی هيبقى
مكانك هنا یا بكر... سلام.

كان المشهد درامياً، لكن الخطوة الأهم كانت نحو زناانة منى.

نظرت فائن من نظارة زنزانة البنات لتجد في وجهها نوران:

نوران:

— يا فتون، واحشاني أوي، أنا سمعت صوتك برّه وقف
أستناكي.



فاتن:

— أنتي واحشاني أكثر بكتير والله، بس مش وقته الكلام ده، إحنا في مصيبة، إخوانك عيانين وبيموتوا، اندهيلي منى.

نوران:

— استحالة طبعاً، منى مديّاني تعليمات محدش يصحّها، وأنا مقدرش.

فاتن:

— نفس الكلام ده سمعته قبل كده من عناني، وأما سكت عليه كانت النتيجة موت أحلام.

تصرخ نوران:

— موت ميبيين؟! أحلام؟! مين اللي ماتت؟!!

صوت نوران يفزع منى، التي توجه نظرها بغضب لنوران،
وقبل أن تنطق كلمة واحدة كانت فاتن التي قد وصلت لآخر
محطات صبرها، موجهة كلامها لزيدان:

— عبدون أملك تنقذ تعليماتي، افتح الزنزانة دي حالاً وطلع
منى برّه حتى لو بالقوة.

زيدان باستهتار:

— تعليماتك يا ريسة أوامر.

يفتح زيدان الزنزانة، وبمجرد أن شاهده منى تذكرت لحظة
اعتقالها على يده قبل أن يصبح كبير رجال عبدون،

ومازالت تشعر بيده التي تحرشت بها للمرة الأولى في حياتها،
تنقض عليه كاللبوة التي تفترس ضبعاً...

تتدخل فائن لتقتلها من فوقه، وتشير لزيدان:

— استناني برّه.

وتوجه فائن نظراتها نحو منى:

— أبوس إيدك يا منى، اسمعيني، إحنا في كارثة، أحلام ماتت
وفي ٣ أطفال بيحتضروا، والدار كلها عيانة وبتموت، وأنا مش
عارفة أتصرف ولا عارفة أعمل حاجة، وكل الكبار في الدار
اللي هرب واللي اتجنن واللي عامل زعيم، ومحدث شايف
العيال.

منى تحتضن فائن:

— اهدي يا فائن، والنبي عشان خاطري (وهي تبكي) احكي لي
كل حاجة بتحصل فوق، وإن شاء الله نلاقي حل.

فاتن أبلغت منى بكل ما حدث، وبدأت الدهشة على وجه منى:
— أنا توقعت حاجات كثير يا فاتن، لكن عمر توقعاتي ما وصلت
للسواد اللي أنتي بتحكيه ده.

أخذت منى نفساً عميقاً وقالت:

— "افهمي يا غبية! العيال مش عيانيين بفيروس بس!
العيال بتموت من سوء التغذية والتلوث، وهيموتوا أكثر.

عبدون هيقطع ميزانية الأكل عشان يدفع قسط "ملكة الصحراء!"
وبكرة يقطع المياه النظيفة عشان يملأ حَمَّام السباحة في غرفة
البابا الجديدة!

وأهو قطع الشجر اللي كان بينقّي التراب ويحمي أوض العيال!

المرض ده منهج اقتصادي يا فاتن.. عبدون يبييع صحة العيال
عشان يشتري بيها هيبة مغشوشة!"

وخدي بالك، عبدون مش وحش، أنا زيه، وأنتي، والعبيط اللي
عمال يجعر في الزنزانة اللي جنبك، وزيدان، وحتى سعيد.

أنا كنت بغير منك، وزيدان كان بيتحرش بيّا، وبكر كان مستعبد
زيدان، وكانوا بيسخروا من سعيد، وسعيد باع بكر، وممكن أكمل
كده لحد ما أقولك أسماء كل أخواتك.

يبدو الدهشة على وجه فاتن... منى، من إمتى بتفهمي في ده كله؟

منى:

— يا فاتن، قعدتي في الزنزانة، خصوصاً الفترة الأولى اللي
كنت فيها لوحدي، خلّنتي أفكر كتيررر وأشوف حدوتة الدار من
برّه.

واكتشفت إن المشكلة مش في أي حد فينا، المشكلة إننا متعلمناش
غير ده، والمشكلة الأكبر إن البابا اللي اختفى ده أضر بينا بحبه.

شالنا من على الأرض شيل، وإما مشى ساب شوية عيال
ميعرفوش يشيلوا نفسهم مش يشيلوا إخوانهم.

عارفة يا فاتن، أنا في الأول نصّبت نفسي البابا في السجن هنا
عشان غروري وغيرتي منك وبلاوي كثير، لكن بعدين عقلت...

تفتكري أما عقلت رجعت أتعامل معاهم هنا كأخت؟ من غير ما
تجأوبي: لأ طبعاً.

تفتكري ليه؟ ... عشان ببساطة لو أنا بقيت أخت، نوران هاتشوف
نفسها البابا، ولو مش نوران أي بنت من اللي جوه دول... كلنا
جوانا بابا صغير يا فاتن.

صدمت فاتن من هول التحليل الدقيق.

كانت منى ترى المنظومة بأكملها: ترى كيف يُدار المأوى، وكيف
تُستبدل الأرواح، وكيف يُساق الجميع نحو المقبرة.

تمسكت منى بيد فاتن، ولأول مرة خلت نبرتها من التكبر:

— خلىنا في المهم، ...

كويس أوي إنكم فصلتوا المرضى لوحدهم، خدي منهم العيال
اللي يقدروا يقوموا وخليهم يتعرضوا للشمس بدري،

وامنعي عنهم أي أكل أو مياه غير بعد ما يتعرض لنار لدرجة
الغليان! لحد ما تيجي الأدوية وتقوليلي هي إيه ونختار منهم
المفيد،

واعملي أي حاجة لعبدون يا فاتن، قوليله إنك بتحبيه، اتخانقي
معاه، اضربيه، المهم يجي دكتور.

ومن هنا لحد ما ده يحصل، الأكل النظيف والمياه النظيفة،

وأهم من ده كله الحالة النفسية، حسسي الأطفال إنه مفيش حاجة،
لا عبيهم، متكشريش في وشهم، داري حزنك واحكيلهم حواديت...
لو هما حبوا الحياة هيعيشوا.

مهمتك صعبة أوي من غير سعيد يا فاتن... وصحّي يا فاتن،
العصاة اللي سايقة عبودون أكيد مش بتساعده الله، ومش هتسيب
لينا حتى الجثث!"

خرجت فاتن من البدروم، وودّعها دعاء منى: ربنا معاكى يا
فاتن، ربنا معاكى ومعاهم يا فاتن.

وبمجرد أن خرجت، صُدّمت فاتن بمشهد عناني وأحد رجاله وقد
انهارت قواهم،

يحملون جثتي طفلين فارقا الحياة، ينظرون نحو فاتن، وقهرهم
وحزنهم كان أبلغ من الكلمات.

حملت فاتن الصغيرين واحداً تلو الآخر إلى حيث قبر أحلام،
وقبل أن تحفر، وجهت نظراتها لعناني:

— مكانك مش هنا، أنا هتصرف، انزل خليك جنب اللي لسه
عائشين.

وبدأت فاتن بالحفر، لتجد يد عبدون تساعدونها أن ينطق بكلمة.

كان عبدون يصارع تراب الأرض، يحفر بعنف كأن هذا القبر أصبح خصمه، وأثناء الحفر توقف فجأة كمن شطّ به العقل، فأمسكت يد فاتن يده تواسيه.



وحين ظهرت أثناء الحفر ملابس جثة أحلام، لم يتحمل عبدون
المشهد، فأبعدته فاتن بعطف، ودفنت الصغيرين، وخرجت نحو
الأصحاء لتداعبهم وتشعرهم أن كل شيء طبيعي، كما أوصتها
منى.

خرجت فاتن إلى الجنينة وحيدة تنتظر استيقاظ الأصحاء.

وزيدان يجلس على المورجينة التي شهدت تنصيب عبدون بابا،
يفكر بعمق في كل شيء.

وعبدون في غرفته، ممسكاً بالتليفون، عيناه تنتقل بين شجرة
شيخون، و"ملكة الصحراء"، والجرانيت، ومواد البناء المجهزة
لبناء غرفته.

لم يقطع لحظة تأمل عبدون في خرابه غير صوت جرس
التليفون.

عبدون:

— ألو، مين؟

الجانب الآخر:

— أنا سعدأوي يا أستاذ.

عبدون:

— إزيك يا صديقي.

سعدأوي:

— طمّني عليك وعلى "ملكة الصحراء"، وقولي الواد سعيد عمل

حاجة وإنّ مش موجود؟

عبدون بكبر:

— ولا يقدر يعمل حاجة، وأنا أصلاً أول ما وصلت قلت: هو أنا

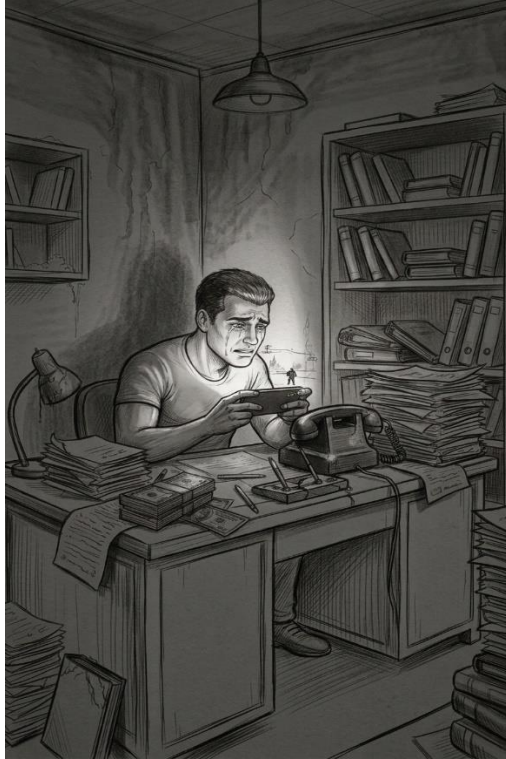
هستنى يوجعني دماغي؟ فحبسته على طول في البدروم.

سعدأوي:

— والله إنت دكر، يلا بقي يا عم افتح التليفون اللي اديتهاولك
هدية وافتح ببجي، ويلا نلعب شوية.

عبدون يخفي حزنه ويمسح دموعه:

— يلا بينا.



وظل عبدون يلعب ويبكي حتى غله النوم.

وعلى الجانب الآخر، أغلقت فاتن عينيها وهي تجلس في الجنينة
تنتظر الصغار.

الدار بأكملها في نوم وسبات، عدا شخص واحد:

زيدان، الذي لم يتأثر ولم يصبه التعب ولم يغلبه النوم.

ومع شروق يوم جديد، أحد الصغيرات تمسك بفستان فاتن،
وبصوت طفولي بريء:

— يا فاتن، اصحي بقي، أنا جعانة وكل العيال جعانين، هتعملنا
أكل ولا ناكلك؟ ... هم.. هم.

فاتن تبتسم:

— يلا يا زهرة، ساعديني.

وبعد تحضير فطور الصغار الأصحاء والمرضى...

فاتن:

— يا زهرة، تقفي بعيد ونادي على أخوكي عناني، قوليله ييجي
ياخذ الفطار.

زهرة الصغيرة:

— إحنا بنندهله من الصبح أصلاً عشان نتخايق معاه عشان يطلع
إخواننا ومش بيرد.

فاتن مسرعة نحو عنبر المرضى، لتجد عناني يحتضن طفلاً
صغيراً وقد فارقا الحياة معاً.

تماسكت فاتن وتوجهت نحو زيدان:

— يا زيدان، عناني مات (زيدان في سره: يلا ريّح) وكمان شريف أخوك مات، انزل إنت واتنين معاك تشيلوهم وتوديهم الجنيّة الخلفية،

وأنا هشغل الولاد اللي بيפטروا عشان ميحسوش بحاجة، وهاجي بعد الفطار أدفنهم.

زيدان بامتعاض:

— تعليماتك يا ريسة.

نظر زيدان لقوة فاتن في هذا اليوم؛ لم تنهار ولم تبك، ووجّه حديثه لمساعدته:

— هي مال فاتن قلبت حنوتية كده؟ دي البت ما دمعتش حتى،

تفتكر اللي قوّى قلبها هو إن عبدون ركبها علينا؟ ولا مواضيع
الموت والجثث دي خلاص بقت حاجة عادية ومتعودة عليها؟

يلا مش مهم، وصلنا، أهو شيل إنت عناني وأنا هشيل شريف،
وعيب يا بيه عينك تدمع، دي معملتهاش فاتن البنّت، هتعملها أنتيا
دراعي اليمين.

فاتن جمعت الصغار حولها تلاعبهم وتطعمهم، كأنه يوم طبيعي
من أيام البابا الراحل.

أحد الصغيرات:

— يا فاتن، الحقي في ناس معرفهمش، دخلوا الدار حتى من
غير ما يقولوا لعبدون ولا زيدان ولا عناني، ويحطوا شجر
بلاستيك في كل حنة.

فاتن:

— أيوه يا حبيبتي، متقلقيش، ده عبدون اللي اشتراه عشان مكان لعبكم يبقى أحلى.

الصغيرة:

— لأ، أنا عايزة الشجر القديم، خصوصاً الشجرة اللي كنا بنفضل نحذف عليها أي حاجة تنزل توت.

فاتن:

— متقلقيش يا حبيبتي، الشجر اللي عندنا عيان وخدوه للدكتور، والشجر البلاستيك ده زينة بس لحد ما شجرتك ترجع.

قاطعهم أحد الأولاد:

— على فكرة يا فاتن، أنا شوفت سعيد وهو ماشي، وسمعناك وأنتي بتقوليله إنه بيهرب.

فاتن:

— لأ بقي، إيه اللمة دي كلها؟

شوفوا يا حلوين، عشان مش كل شوية واحد فيكم يعمل المفتش
كونان ويجي يستجوبني، اسمعوني سوا بقي كويس:

— عبدون أخوكم الكبير مش شرير ولا حاجة، يمكن أكثر حد
بيحبكم، وهو شديد شوية عليكم بس عشان هو اللي متحمل
المسؤولية، وبكرة تكبروا وتعرفوا قد إيه ده صعب.

وبكر أخوكم الكبير برضه ما نزلش البدروم عشان هو وحش،
هو بس كان زعلان ومتضايق واتخانق مع أخوه، هو إنتوا مش
بتتخانقوا وتتصلحوا كل شوية؟

وسعيد كمان مش جبان ولا هرب، سعيد بس تعب، وده من حق
أي حد يتعب، بكرة يرجع، وحتى لو عجبته العيشة برّه الدار يبقى
نفرح ليه ونعمل كل حاجة تخلي الدار بتاعتنا حلوة عشان محدش
تاني بنحبه يمشي ويوحشنا زي سعيد.

اطمأنت قلوب الصغار بحكايا فاتن.. إلا الصغير "مضبوط".

سكنت الجملة الأخيرة عقله الصغير كطنين نحلة لا تهدأ:

علقت في أذنه كلمة واحدة وظلت تتردد:

"عشان ما حدش تاني يمشي..".

لم يفهم منها التثبيت، بل فهم براءة الخروج. إذن.. العالم في
الخارج ليس غولاً! سعيد لم يمت، سعيد فقط أراد أن يكون أحسن،
وأن من حقه أيضاً أن يكون أحسن.

تقدمت الصغيرة زهرة

(تلك الصغيرة التي تلصقت يوماً من كرتونة "بسكو مصر"
على عبدون ومنى، قبل أن يودعاها في البدروم) تقدمت تشد
طرف ثوب فاتن، وقالت بفزع:

— الحقي يا فاتن... العيال العيانيين في الأوضة الجوانية مسخنين
أوي... الكمادات مش جايبة نتيجة، ولسانهم ثقيل، ومش عارفة
عناني راح فين!

ارتجفت يد فاتن... وأدركت حينها أنها وحدها أصبحت مسؤولة
عن الأصحاء والمرضى والجثث.

وانقطعت الحكاوي، وانصرفت فاتن لتتولى كل المهام وحدها.

الفصل الثاني عشر:

بابا

بعد مرور عدة أيام، لم تعد فاتن تعرف كم يوماً مضى؛ لم تعد الأيام تملك أي معنى، وأصبحت مجرد أرقام عابرة مثل كل شيء في الدار.

أصبحت فاتن هي من تُعِدّ الطعام، وتلاعب الأطفال شبه الأصحاء وتقص عليهم القصص، وترعى المرضى من الأيتام وتداويهم وتضع الكمادات على جباههم.

هي التي تفتح عينيها كل صبح على عدد جديد من الأسرّة الفارغة، وفي هذا الصباح دفنت أربعة جدد من إخوتها.

اختلط كل شيء لديها؛ لم تعد تفرّق بين دمعة العرق ودمعة البكاء على وجهها، ولا بين صوت أنفاسها وصوت حفر التراب.

وعبدون في غرفة البابا تائه بين لعبة ببجي ومكالمات شيخون
وصوت سكون الدار، بعد أن انتصر هذا السكون على ضحكات
الصغار ووأدها في الحديقة الخلفية.

نادى عبدون على زيدان:

— يا زيدان، تعالى طمّني على الأوضاع.

زيدان دخل بوجه مرهق، عيناه غائرتين، وقف من غير أي
احترام معتاد:

— كله زفت يا عبدون.

عبدون توقف لحظة:

— أول مرة تقولّي "عبدون" حاف كده.

زيدان:

— وأنا من إمتى بقيت بقولّك حاجة غير عبدون حاف؟

عبدون:

— من ساعة ما بقيت البابا.

زيدان بابتسامة باردة:

— مهو إنت لسه لحد دلوقتي البابا، بس إحنا لوحدنا يعني،
عدّيتها بقي.

ساد صمت ثقيل. عبدون بيحس إن في حاجة اتغيرت في الهوا
نفسه، بس مش قادر يحدد إيه بالضبط.

استكمل زيدان، وكأنه بيتعمد يزيد الوهم في عقل عبدون:

— وبعدين يا ريس، مش تدخّلني، اللعب معاكم ببجي.

وأظهر تليفوناً جديداً لامعاً من جيبه.

عبدون:

— جبت التليفون ده منين؟

زيدان:

— من صديقنا سعدأوي.

عبدون:

— قصدك صديقي أنا.

زيدان:

— ولا أنا ولا إنت، ده صديق الدار، واللي بيحكم الدار.

عبدون بحدة:

— وأنا اللي بحكم الدار.

زيدان بخبث هادئ:

— طبعاً يا بابا. وبما إنك البابا، في عيال جداد ماتوا، ومفيش

أدوية جت... اتصرف يا بابا، ولا اتصرف أنا؟

نظر عبدون في وجه زيدان طويلاً، كأنه يراه للمرة الأولى:

— إنت عارف اختصاصك يا زيدان، إنت أمن بس. روح
يلا ساعد فائن في الدفن.

خرج زيدان بيهز راسه رافضاً:

— الدفن مش من مهام الأمن يا معالي البابا، شوف مين
المختص، وأنا شخصياً هنقلّه تعليماتك.

واستكمل زيدان في طريقه دون انتظار رد عبدون.

جلس عبدون وحيداً، وصدى رفض زيدان الأول يرنّ في أذنه،
حتى تلاشى أمامه كل صوت آخر من كوارث الدار وأحزانها.

مدّ يده لسماعة التليفون ليجدها بلا حرارة.

عبدون محدثاً نفسه:

— أكيد هو زيدان طب والأدوية لازم تليفون اقولهم بيعتوها

كل المؤشرات، وكل نظرة، وكل كلمة قالها زيدان من الصباح، كانت دليلاً على شيء واحد: زيدان يخطط لحاجة.

جمع عبدون كل الأموال والهدايا، ووضعها في شنطة فوق دولاب غرفته.

وخرج يمر في الدار لمتابعة الكوارث المستجدة، ومساعدة فائن في دفن إخوتهم.

طوال اليوم، الصراعات لا تتوقف، وبدأت تظهر على الأطفال شبه الأصحاء أعراض المرض.

وفي منتصف اليوم، كان مضبوط واقفاً وحده في زاوية الجنية، وجملة فائن القديمة ترن في أذنه من غير توقف:

"عشان ما حدش تاني يمشي... عشان ما حدش تاني يمشي."

ودون أن يلاحظه أحد، مشى مضبوط، زي ما مشى سعيد، من غير وجهة.

في غرفة البابا، بدأت أعراض المرض تظهر على زيدان بسرعة غريبة.

جلس زيدان خلصةً على كرسي البابا للمرة الأولى، وسأل نفسه:

— إيه السخونية دي؟ يمكن ده عدوى من العيال؟ لأ، لو كانت عدوى ما كانتش هتبقى بالسرعة دي.

ودار في عقله احتمال واحد:

— أكيد هو حطلي سم. وأكيد إما شمعون إداهوله ولا سعدأوي، زي ما إدوني أنا كمان.

وقبل ما يكمل الفكرة، لم يعد يستطيع التنفس، تمسك بكرسي البابا بشدة، ثم سقط رأسه على المكتب، وغاب عن الوعي.

مات؟ ولا لسه فيه نفس؟ محدش كان هناك يعرف.

وفي الجنيحة الخلفية، عند حفرة القبر الأخير الذي حفرته فاتن بيديها، ألقى الجسد المنهك سلاحه الأخير.

لم تكن صرخة ولا استغاثة، بل هوى ذلك الجسد الذي أرهقته الدار طويلاً، هوى كشجرة معمرة انقطع صمغها فانكفأت على وجهها في صمت.

سقطت فاتن فوق تراب القبر الجديد، لا لتستريح، بل لأن الأرض وحدها هي من بقيت تمد لها يداً تحتضن انكسارها بعد أن تخلى الجميع.

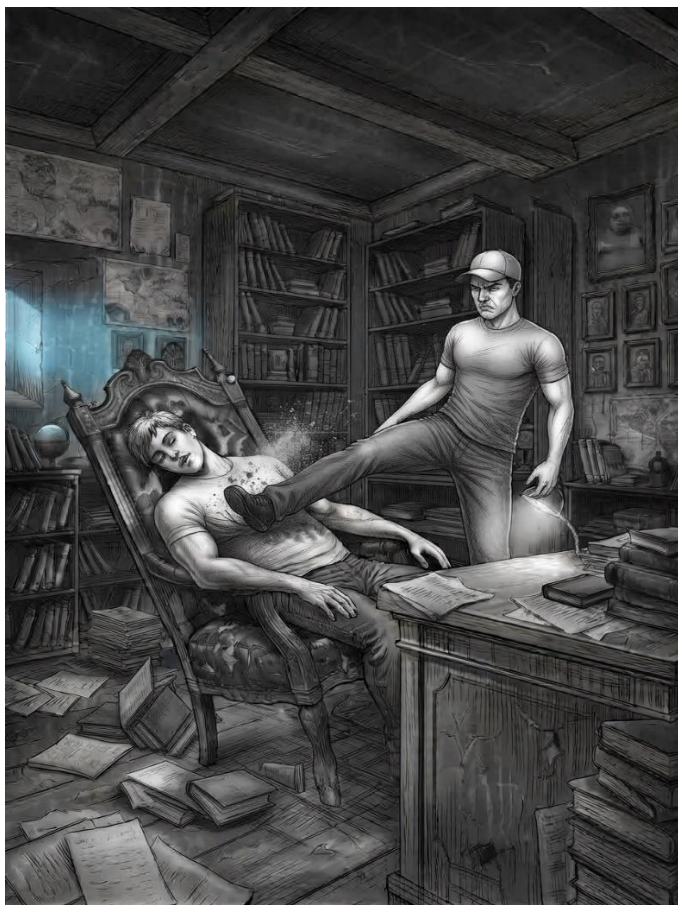
هناك، حيث اختلطت دماء عرقها بتراب الضحايا، انطفأت شمعة
الدار الأخيرة، وتركت خلفها مقبرة مفتوحة بلا حارس، وجسداً
طاهراً يحتضن التراب كأنه يرفض أن يشهد مأساة النهاية حتى
آخرها.

فاتن سقطت فعلاً، لكن ما حدث يعرف لو كانت غيبوبة، ولا كان
شيء أبعد من كده.

ووصل عبدون لغرفته ليأخذ الأموال والهدايا، ليجد زيدان جثة
هامدة على كرسي البابا.

ركل الكرسي برجله، فوقع هو وزيدان والكرسي معاً على الأرض، وقال بصوت لا يشبهه:

— يلا في داهية.



أخذ عبدون الأموال والهدايا، وتوجه مسرعاً إلى الجنينة الترابية،
وركب "ملكة الصحراء"،

وقبل أن يهرب، ألقى نظرة أخيرة على شجرة شيخون، والتفت
للشجر البلاستيكي، ثم نظر إلى مبنى الدار، وفرّ هارباً.

بعد هروب عبدون، لم يعد في الدار مراقب واحد؛ فقد أكلهم
المرض، ونقص العلاج، ونقص الغذاء، والسهل الطويل على
رحلة المرض، حتى صاروا كالأموات يمشون، فلحق بهم الموت
فعلاً.

لم يكن هناك من يقوى على غلق باب الدار الحديدية، فخرج
عبدون وكل أبواب الدار مفتوحة، عدا بابين... باب عنبر
المرضى، المشغولين بالاحتضار عن صراعات الدار، وباب
البدروم.

مرّ اليوم وسكان البدروم بلا طعام ولا ماء،

وفي سجن الرجال كان بكر مشغولاً بتأديب أحد السجناء الذي
خالف أوامره، ونقش اسمه على الحائط بحجر،

ثم ألتفت وقال:

— هو ليه ما جاش أكل ولا مية النهارده؟ أنا جعان في
حاجة باقية من إمبارح؟

أحد المساجين:

— في إزازه مياه واحدة.

التقطها بكر منه وشربها دون أن يترك نقطة مياه واحدة لا
لزملائه ولا للمستقبل.

أما منى، التي كانت تنتظر في وجه نوران وعقلها تائه في خيالاتها
عما يحدث في الأعلى في الدار.

نوران:

— يا منى، إحنا عطشانين أوي، ومحدث جاب مياه ولا
أكل.

منى:

— ولا حد هيجيب يا نوران.

نوران:

— يعني إيه؟

منى:

— يعني اللي فاضل فوق نسي إن في ناس تحت.

لو تعرفوا تكسروا الباب، اكسروه، ولو ما تعرفوش، يبقى
ناموا في هدوء.

نوران کمن شطّ عقلها تصرخ، ويتبعها رفيقاتها بالصراخ.

لتفتن إحداهن حل قد يكون الأخير:

— يا بكر... يااااااااااا بااااااااااا كر، يا بكر، الحقنا واكسر الباب،
كلنا هنموت!

كان صوت زميلاتها عالياً بما يكفي ليخترق الجدران، لكن كان الأجدى أن يحتفظن بهذه الطاقة ليبقين أطول مدة على قيد الحياة.

سمع بكر وزملاؤه أصوات استغاثتهن، ووقف بكر على النظارة:

— خَلُّوا البابا عبدون يَنْفَعُكُمْ، هَاهُ، هَاهَاهَاهُهَا، هَاهُ.

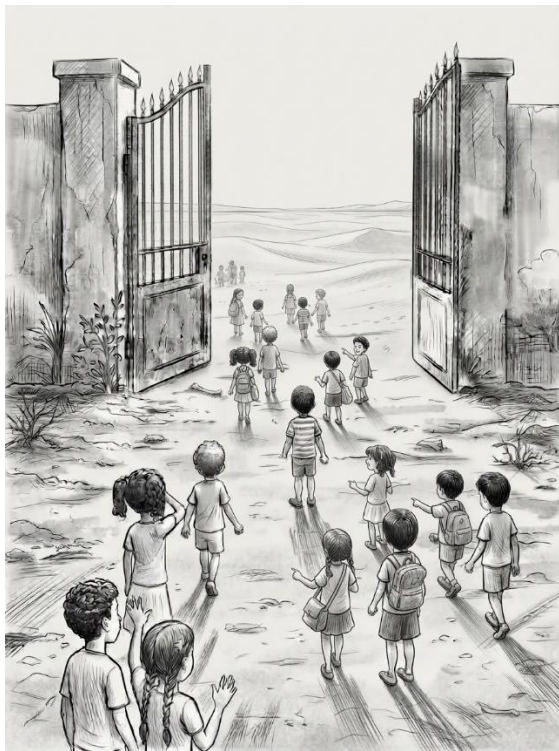
وظلت تتعالى أصوات الاستغاثة، واختلطت بأصوات من فشلت
محاولتهم في كسر أبواب السجنين، حتى تلاشت الأصوات
تدريجياً، وسيطر السكون على البدروم، وأعلن السكون نفسه
البابا الجديد للبدرين.

لكنه لا يشبه البابا الأول، ولا البابا عبدون بعده؛

سكون بابا لا صوت له ولا وجه له، لا يحتاج من يهتف له ولا
من يخاف منه، ليس تواضعاً منه ولكن لأنه لم يعد هناك من
يهتف أو يخاف.

وبعد أن هربت "ملكة الصحراء" محملة بالأموال والهدايا
وعبدون، لم يعد في الدار أيُّ من الأيتام المراهقين الكبار ليغلق
بوابة الدار خلفه.

انفرط عقد الصغار كحبات لؤلؤ انقطع سلكها؛ لم يبقَ في الدار
من يردّهم، فبدت البوابة منفذاً لطريق مظلم يبتلع براءتهم.



الأيتام الصغار عبروا البوابة إلى الصحراء الممتدة كأسراب طير
ضلّت طريق العشب؛ طفل يتخبط في سراب الرمال، وآخر يلتفت
وراءه بشوق لأيام البابا وحتى أول أيام عبدون، وصغيرة تمسك
بلعبة قماشية بالية وكأنها تلوح لسراب بعيد.

خرجوا أفراداً وجماعات، تبتلعهم رمال الصحراء بلا وجهة ولا مصير، شريان صغير يتدفق نحو المجهول، ليتركوا دار الأمل هياكل خاوية تندب فيها الريح.

كانت هناك طفلة واحدة اختبأت خلف إحدى المسوخ البلاستيكية التي نُصبت مكان الأشجار... تلك الصغيرة التي تلصقت يوماً ما من كرتونة "بسكو مصر" لترى عبدون وهو يفحص منى قبل نزولها البدروم... إنها الصغيرة زهرة.

حأولت زهرة دخول عنبر المرضى، لكنها تذكرت تعليمات فانت وعناني بعدم الدخول، فنادت من خارج باب العنبر، ولا مجيب.

وقفت زهرة وحدها عند باب الدار المفتوح، تمسك بطرف الباب الحديدي، وتنتظر للأشجار التي لا تتطاير مع الريح، وتقلب وجهها للصحراء تارة، ولمبنى الدار تارة أخرى.

ومن الصحراء، ظهر رجل كبير، قصير القامة، يبدو أصغر من
البابا الراحل وأكبر من عبدون ورفاقه.

وبمشية رجل واثق من نفسه، اقترب من صغيرتنا.

— إيه يا قمر، واقفة كده ليه؟

زهرة:

— كل إخواني مشيوا ونسيوني.

الرجل:

— يعني المكان ده كله مفيش فيه غيرك؟ ولا في حد ياخذ
باله منه؟

زهرة:

— أيوة، أنا هاموت زي إخواني.

الرجل ركع على ركبتيه، بابتسامة دافئة أتقنها منذ زمن بعيد:

— لأ، مش هاتموتي يا حبيبتي.



أنا هأخذ بالي منك، وهأجيبك إخوات كثير في الدار تاني.

زهرة:

— بدل سعيد وفاتن وكل اللي مشيوا؟

الرجل:

— أيوة.

زهرة:

— يعني إنت هتبقى البابا الجديد؟

ابتسم الرجل، ومد يده لها:

— إيه البابا دي؟ اسمي بابا بس، مش البابا.

قوليلي بعد كده: بابا إبراهيم.

أمسكت زهرة يده الكبيرة بيدها الصغيرة:

— ماشي يا بابا.

ومشيا سوياً، وقالت زهرة:

— ده أنا هاحكيلك، وهاحكي لإخواتي، حاجات كتير

حصلت هنا.

ابتسم بابا إبراهيم، وأغلق يده على يدها الصغيرة، ونظر إلى
الدار الخاوية خلفها كأنه يقيم أرضاً جديدة.

— لا، أنتي متقوليش حاجة. إحنا هنبدأ من الأول.

مسك بيدها، ودخلا معاً من البوابة التي لم يقفلها أحد،

وتوتة توتة، بدأت الحدوتة.

في هذا العالم، لا تموت الأنظمة الاستبدادية بموت طغاتها

بل تُورث ألياتها لمن يديرونها بذات العقلية وبأفئدة جديدة

يرحل البابا مخلفاً وراءه خراباً ومقابر،

ليدخل عبدون ويبدأ الحدوثة من جديد".

عن المؤلف:

محمد صبحي، كاتب وصحاف حنوفي مصري، عمل لسنوات طويلة في الدفاع عن الحريات العلمية والحقائق الأساسية، وشارك في مبادرات وأبحاث متصلة بالعدالة الجنائية. مؤلف للعديد من المؤلفات تنوعت بين الفكر السياسي، والدراسات الحقوقية، والعمل الأدبي الساخر.

من أبرز مؤلفاته:

- كتاب: الشاهد على نظام يحتضر
- رواية: نقابة الحرامية



عقيدة الجهل الواثق والعجز المتبادل

